

ليلى صبار

ترجمة: أحمد عثمان

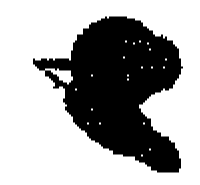


أختي الغريبة

وقصص أخرى



العدد 061 | يوزع مجاناً مع مجلة الرافد | يناير 2014



منذ أن باشرت مجلة «الرافد» إصدار «كتابها الشهري» قبل أربع سنوات، بالترافق مع العدد؛ كانت الاستجابة كبيرة جداً.. سواء من قبل القراء أو المساهمين في السلسلة، ولهذا السبب قررت هيئة التحرير إضافة كتاب جديد، بحيث يصدر كتابان مع كل عدد، بالإضافة إلى «كتاب الرافد الإلكتروني»، الذي ينشر على موقع المجلة.

بهذا نكون قد وضعنا عتبة تفاعلية جديدة مع ذاكرتنا الجمعية المقرونة بسؤال الوعي والتاريخ والمستقبل، وستحرص سلسلة «كتاب الرافد» الشهري على التنويع وحسن الاختيار المقرون بقواعد معايير فكرية وإبداعية ناظمة لأسباب الرسالة الثقافية للمجلة.



العدد 061 ـ يناير 2014
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد



دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة

ص.ب. 5119

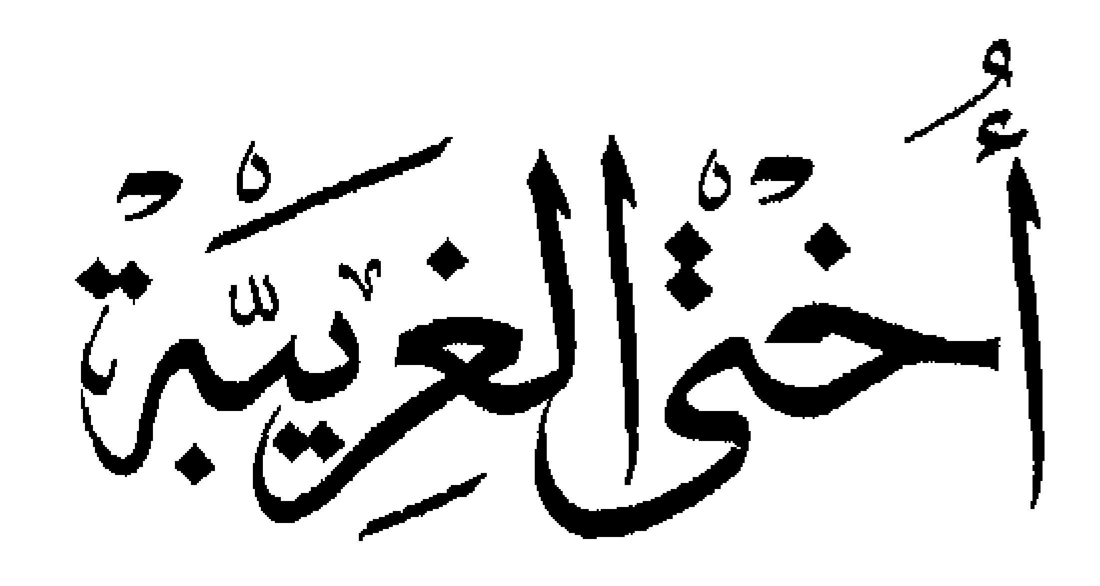
هاتف: 5123333 9716+

بـرّاق: 5123303 9716+

www.arrafid.ae

◀ المواد المنشورة تعبر عن كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الثقافة والإعلام

◀ وكلاء التـوزيع: دولة الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي: ت: 3916501 /04، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والنشر والتوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561 - 05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562 - 0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سبريس» الدار البيضاء: ت: 249200، مصر: مؤسسة أخبار اليوم: ت:5782700، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.



قصص

ليلى صبار

إعداد وترجمة أحمد عثمان

دائرة الثقافة والإعلام الشارقة

ليلى صبار: أدب الجميع

جيسيكا فالو (*)

إذا كان ينظر إلى ليلى صبار على أنها كاتبة للشباب، في المعنى المتعارف عليه عامة، فإن قراءة رواياتها وقصصها تجد على الرغم من ذلك صدى لدى جمهور عريض.

ولدت في الجزائر خلال الحقبة الكولونيالية، لأب جزائري وأم فرنسية، وخلال سنوات المراهقة رحلت إلى فرنسا ولم تكفّ منذ ذاك عن التفكير، عبر الكتابة، حول الروابط التي تجمع بين البلدين، وطنيها.

عبر هذا العمل، عمل الذاكرة وبناء الهوية،

تتحدث ليلى صبار دوماً عن الطفولة، هذه اللحظة المؤسسة التي تبني أو تدمر بالغ الغد. كتابتها تتوجه مع ذلك إلى القارئ الشاب الحساس إلى هذه الأسئلة الفردية والعالمية في آنٍ معاً، وأيضاً إلى هؤلاء المراهقين الذين وجدوا في نصوصها تاريخهم الحقيقي، ثقافتهم المزدوجة، وحاولوا أن يبنوا أنفسهم قبالتها.

للأسف، من القوة أن نلاحظ أن نصوصها معروفة إلى حدٍّ ما لدى الجمهور الشاب تحديداً لأن القلة منهم تعلمت في المدارس، حتى الأساتذة أنفسهم يمتلكون القليل من الأدوات البيداغوجية لكي يدرسوا الآداب الفرنكفونية المعاصرة.

ولذا، تمهيداً لعرض نتاج ليلى صبار، أقترح عرضاً قصيراً لبعض نصوصها حتى يكتشفها المراهقون والكبار: في بادئ الأمر، هناك مجموعتان قصصيتان: «الشابة في الشرفة» (مطبوعات سوي، 2001) و«جنود» (مطبوعات سوي، 1999). تعقب المجموعة الأولى مكاني الحكي، الجزائر وفرنسا، وترتبط بإظهار الأماكن التي يرتادها أطفال المهاجرين مع الآخرين عبر موشور الثقافتين. لقاءات صعبة وثرية في آنٍ معاً. تدور قصص المجموعة الثانية السبع عن الأطفال المحاربين الذين وجدوا أنفسهم في وضعية لم يختاروها ولم يسيطروا عليها رغم عذابات الحرب: الموت، الطرد، الجوع، إلخ.

وبمقاربة أكثر تاريخية، «نهر السين أصبح أحمر اللون»، باريس،

أكتوبــر 1961 (مطبوعات تييــري ماغنييه)، يرجع إلــى مذبحة 17 أكتوبر 1961[1] من خلال شــخصيات الطالبة الشــابة، أمل، التي لا تفهــم أبداً صمت ذويها الذين يرفضــون بدورهم أن يحكوا لها ما جرى، إلى أن يوافقوا على أن يعرفوها إلى ســينمائي يقوم بتحقيق فيلــم وثائقــي عن الموضوع. نجــد هنا موضوع ليلــى صبار الأول للكتابــة، وهو الكلام، أو بالأحرى انعدام الــكلام. ينطلق عملها عن الذاكرة كله من هــذه اللا – ملفوظة، المرتبطة دوماً بالمنفى، بفقد الذاكرة السياسية، التاريخية والثقافية.

تتبلــور تعقدات هــذه الذاكرة محــل البحث أيضاً في الســرد الوثائقي، «كنت طفلة الجزائر: يونيو 1962، مطبوعات ســوربييه، سلسلة كنت طفلة)، حيث نجد طفلاً في زوبعة، مع نهايات الحرب، يتساءل وينزعج عن التمزق والفصل.

تتابع ليلى صبار، على وجه التحديد، مسعى المراهقة عبر سلسلة من حكايات المغامرة. تســطر الحكاية الأولى «شــهرزاد، 17 ســنة، سمراء، مجعدة الشعر، العينان خضراوان» (مطبوعات ستوك، 1982) في ســرد غريب ومخالف للصواب وواقعي فــي آنٍ واحد انحرافات فتيات الضواحي وعلاقاتهن في باريس. هذه الفتاة المتمردة تشرد فــي المدينة (كانــت المكتبة أحد أماكنها المفضلــة) وتتردد على العوالم المعتمــة (المخدرات، الدعارة) بحثاً عــن هويتها وحريتها. تتلاحق مغامراتها مع «كراســات شــهرزاد» (نفس الناشر، 1985)

حيث تخط، عبر فرنسا، جغرافيتها الغنائية والعاشقة وتبدع، على مدار صفحات كراساتها، أرضاً جديدة في ملتقى الغرب والشرق، «مجنون شهرزاد» (نفس الناشر، 1991)، إذ تروي بحث جوليان الذي، منذ لقائه بشهرزاد في باريس، لا يفكر أبداً إلا في أن يجدها ثانية وإن كلفه الأمر السعي في أنحاء العالم بأسره.

ولكي أنهي هذا العرض وأسطر العمل الجماعي للكاتبة، أذكر مجموعتي القصص اللتين حررتهما. «طفولة جزائرية» (مطبوعات جاليمار، سلسلة فوليو، 1997)، حيث يحكي ستة عشر كاتباً جزائرياً من المولودين قبل الاستقلال أشياء من طفولتهم والنظرات التي يحملونها على تاريخهم. في نفس المنظور، «طفولة من مكان آخر» (مطبوعات جيه لو، 2002)، تجمع بين كتّاب ولدوا ونشأوا في نفس البلد مثل فرنسا ويعيشون فيها اليوم، يروون لحظات فريدة أو شذرات من طفولتهم الغريبة. مرة أخرى، تبين هذه الحكايات ثراء الثقافة المزدوجة وأهمية حيوية الذاكرة لكي تبنيها بصورة فضلى.

***

Jessica Fallot , Leïla Sebbar:une littérature pour tous , La plume francophone , Nr 2 , 2006 (*).

(1) مذبحة 17 أكتوبر 1961 تشير إلى القمع الذي مورس على تظاهرة سلمية في فرنسا لأجل استقلال الجزائر. حسب التقديرات، هناك بين 32 و325 ! مغاربياً ماتوا تحت ضربات الشرطة الفرنسية، التي كان يقودها آنذاك موريس بابون. ألقي بالعشرات من المتظاهرين في مياه السين، بينما مات آخرون في مراكز الاعتقال. أنكرت السلطات هذه المجزرة، ولم تعرف رسمياً إلا في 17 أكتوبر 2001 من خلال عمدة باريس برتران دولانويه.

الشرق، هاجسي

من الشرق، لم يتبق لي سوى اسمي.

يتبدى لي أنني لن أحوز شيئاً سواه، الشرق، هاجسي.

مولدي في الجزائر الكولونيالية، المنزوية في الجمهورية الفرنسية الصغيرة، العلمانية، المثالية، في مدرسة أبي، المعلم الوطني للتلاميذ الوطنيين، جعلني بعيداً عن العلامات الظاهرة لهذا الشرق، الذهبي، الأحمر والأخضر، حيث أجهل دوماً اللون. أتساءل عما جرى للشرق في طفولتي بفرنسا

الصغيرة، حيث أحيا، في لغة أمي، اللغة الفرنسـية، اللغة الوحيدة الحقيقيــة والميثولوجيــا التــي ينقلها أبــي إلى أرضــه، العربية، الأمازيغية، العثمانية، المسلمة، المتباينة، التي لا أعرفها.

مــن الممكــن أن أكون ولــدت في اللغــة العربية، لغة الشــرق المتوسطي، في الإسلام، ديانة أم أبي، ديانته، ديانة شعبه (إلى أي شـعب أنتمي؟). أعتقد أنني أنتمي، في يوم من الأيام، إلى شعب الثورة وشعب النساء، إلى الشرق، لا. غير أنني، أنتمي إليه.

كل ما يمكن أن ألاحظه عبر هذا الاســم الواضح، الســخي، والذي يضطرب نوعاً ما، الشرق، لا أراه. ولا الدور الراقية ذات الصحون، الينابيع والموزاييك، ولا الأسطح السرية، حيث تتهامس النساء والأطفال وقت غروب الشــمس، ولا الحمام، حيث المدلكات العجائز والأقل عجزاً تسبر أغوار الأجســاد الشــابة وتداعبها، موهوبات، ســتكون هذه الأجساد أكثر نعومة ليل العرس، ولا الأعراس الفقيرة أو الموسرة، حيث ترقص النســوة والفتيات، متزينات، متلألئات، وســط الصياح والضحكات، وقد حمسهن موســيقيو الحفل (ذات مرة، في فوضى أجساد الرجال والنساء المجتمعين انتظاراً، سمعت طلقات رصاص، لا أعرف إن كانت تعلــن دم العروس، دم فراشــها، لا دم حمامة، دم الشــرف)، لا ليالي رمضــان، العائلات الأكول المجتمعــة، الصاخبة حتى فجر يوم صيام طويل، الفخورة بالأطفال، الصبية والصبايا. ولا عدم نفاد صبر السكين الرفيع، المشــحوذ مئة مرة، الأب أو العم وسط الحلقة، حيث الفتيات

مصابــات إلى حدّ كبير بالخوف، حيث الصغار يبكون الحيوان المزين، الذي أطعموه جيــداً حتى هذا اليوم، الخروف المذبوح، الدم ينســال، يجب ألّا نوقفه، الأرض تشربه، أســود وبني، والجلد ستقوم الأمهات بدباغته لأجل الجدات اللاتــي يصبن بالبرد، ولا الحايك، الصوفي أو الحريري، وثناياه للنزهات في دروب القبيلة، في مقبرة الجمعة، صبار القبور ومياه العصافير، ثرثرة النساء المقرفصات، الجالسات الواحدة قبالة الأخرى حول التلال والنخيل المغروس. ولا لمعان المياه، الأصوات والضحكات، الغســيل على البحيرة. لا رجل على الطريق، زهور الأثواب أعلى الأفخاذ، الشــعور على مجرى النهر، القطع المعدنية ذات الرنات المرحة حتى الليل. لا نســاء حول النبع، لم يقل أحد إن الدرب ممنوع عبــوره على الفارس الممتطي صهوة الجواد، يســتعرضون ذكورتهم، النســاء يحلمن، ربمــا لا حظن، وهذا ســرّ، الطفل المتربــص والرجال الجالسين تحت الشجرة. هل ينتظرن البشارة؟ في عدو الفرس السريع القادم، بلغت النساء الذرى. لا أذان المنارات العميق، نداء الصلاة، لغة القــرآن التي تجمع بين الجميع تحــت القبة أو في الغرفة، لأجل حب الله الواحد، الحليم والرحيم. لا الكفن المعد لموته، ولا الأعشاب الذكية الرائحــة ذات الملمس النقــي، يغادر البيت على نقالــة محمولاً على أكتاف الأقربين، وســط آيات صلاة الميت، ولا مقاهي اللذات، حيث يمضي البعض الساعات وأوقات القيلولة، على البوسفور، الأدرياتيكي، البحر المتوســط، البحر الأحمر... والبعض الآخرعلى ضفة النهر، النيل، الفرات... أحياناً هناك مطربة يســمعها الرجال باكين، ليست مطربة

بيـوت اللذة الفقيرة، حيـث يصدح الصوت لأجل بعـض المال، لا، مقهـى اللذة، غرفة موريسـكية حمراء، ذهبية أو خضـراء، نارجيلات ذات دخـان عطري، كلمات الأغنية، قربان، دموع الرجال، قطع ذهبية. ولا أغانـي تنويم الأطفال على حافة الفراش الصغير، إنها لغة الحب المغنى، ولا الحكايات، كل مسـاء، ذات الأعين المغلقة، يسمع الطفل الحكاية، الجان، الغيلان، القصر والأمراء، الفتيات اللاتي يعانين الحب، المطـرودات من بيت الأب، تحميهن حيوانـات كريمة وغابات رقيقة (قرأت مبكراً، أهدوني الكتب، كثيراً من الكتب التي لا تحكي شيئاً عن الشرق، دوماً الضفة الأخرى، الشمال، لم يقص أبي ولا أمي عليَّ حكايا الخرافات قبل النوم، أبداً)، ولا حدائق الشرق الفارسية والعربية، أشجار السرو، الرمان والينابيع، الحدائق المغلقة للسرايا، حيث يباغت سلطان الحكايا الـزوج، وصيفاتها والزنوج، يعدمهم، نعرف مصير المختارات اللاحقات، حتى شهرزاد. الحدائق في الصحراء، عطية الله.

لماذا بحثت عن الشـرق؟ إنـه محتجب علـى أرض أبي، أرضي ومشـاهد طفولتـي. حدائـق، أعرف حديقـة البهجة لأمـي، الزهور المنسـقة، زهور السلبوت، السوسن، البنفسـج، الخبازي، وحديقة أبي التي يحضرها لدروس تلاميذ الريـف. لم أر غيرهما، ولا حتى حديقة الأبحاث فـي الجزائر (العاصمـة)، إنها الحرب، الحدائـق الغرائبية العامرة بنباتاتها خطرة للغاية. حقول زراعية، بيوت السادة الجميلة، ممشـى السـرو، المزرعة البيضاء، بعيـداً عن الكروم، منيعة، أشـجار

البرتقــال الزاهية أوراقها قرب أشــجار الأوكاليبتوس العملاقة، معها دوماً أشــعر بالبلد، متجهة نحو الجنوب وأشجار الزيتون، من كورسيكا حتى فلســطين وتونـــس بحدائقها الكبيرة، الفريــدة والجميلة. عند ســفح الربوة، البيوت المحاطة بالصبار العالي، مسجد صغير، منعزل بشــجرته، شــجرة زيتون عجوز، رأيتها دوماً من بعد، كيف أتجه إليها برفقة نســوة مقوســات الظهر وأطفال؟ بياض القبــة، نظرت إليها كثيراً، وإليها اتجهت لرؤيتها منذ البداية، دنوت منها، وحيدة، للمرة الأولى في ظلال الشجرة الحامية، ربما هناك عجوز تتمتم جالسة قربي وأنا قربها. هو ذا ما أتمناه في جزائر العودة. لا شيء آخر. لا أحد آخر. لا كلمــة، فقط صلاة العجوز. في أعلى القناة، أطفال، صبية وصبايا، يرتدون الأسمال يشــيرون بأياديهم، يبيعون البيض، التين، الهليون البري إلى من لا يتوقفون بســياراتهم. المشــاة هــم الآباء والأقارب، أولاد الأعمــام، الفلاحون البســطاء والأرض البخيلة، وأناس المزرعة لا يراهم أحد. أحياناً، نهر، المياه نادرة، نســمع النســوة، لم أدس على الأغطية المفروشة على الأراضي المنبسطة مع الأطفال الذين يجرون فــي كل مكان والأمهــات اللاتي يصرخن، لا حظــت فقط الخيالات تغسل الملابس في النور، فكرت في أنه بعد الظهيرة، سيعمل النهر على إســعاد النســاء المرشوشــات بالمياه. البحر، نعم، البحر أو طفل القرية العربي الــذي لم يعرف المغامرة أبداً. نرى، بدون أن نرى حقاً، الأطفال العرب مســتلقون خلف الكثبان والذيــن ينظرون إلينا، نحن

بنات الغريبات، الجالسات على الأغطية تحت الشمس، وسط أعواد البوص المنتصبة، نساء شبه عرايا يحميهن رجال المستعمرة البيض. لا نميز أبداً، في جماعة الغرباء الذين يلعبون مع أطفالهم، إذا لم يقترب المرء منهم، بين الإسباني ذي الشعر الأسود والمجعد، العربي ذي البشرة السمراء والأخوات الثلاث، ذوات الأعين المغولية. يراهن المرء على الرابية الجافة، هؤلاء النساء ذوات السيقان العارية اللاتي يرتدين بناطيل قصيرة، ويبحثن عن الحلزون بعد عاصفة الليل.

مشهد الطفولة الجزائرية، لا أعرف، بالتالي، أنه رحل تحت لوحات وصور الفنانين، عاشقي الشرق. المغرب، غرب الشرق الجغرافي يرتسم في الشرق. يعتمد أشكاله وألوانه، محظياته، حماماته ومقاهيه. بعيداً عن الطفولة والبلد الأمومي، أتعلم عبر الكتب والصور أن الشرق يسكن الجزائر. فرنسا، سكنته كثيراً من قبل. أبدع شهرزاد جديدة، مولودة في شمالي إفريقيا الكولونيالي، في بيت من بيوت أولناي – سو بوا، هاربة سيقوم ذو اللحية الزرقاء بسجنها في غرفة الفضوليات والمذبوحات، عالمة مثل سلطانة ألف ليلة وليلة، ماكرة وحكاءة حكايات أيضاً. مع شهرزاد، وجدت ذاكرة الشرق، ذاكرتي، أعرفها، هي أيضاً.

* * *

(*) Leila Sebbar, Sigila, L'Orient, ma rêverie, 2004.

ظل اللغة

في بادئ الأمر، منذ يومي الأول في العالم ودوماً، هنـــاك لغة أمي، اللغة الفرنســـية الجميلة. واضحة، مضيئة، كلمات النور وعصر الأنوار. أتكلمها، أكتبها، أحبها. علموني أنها تقول، وهي وحدها التي تقول العدالة والمساواة والأخوة. لماذا لا أؤمن بها؟ تحكي حكايات الحـــب القديمة والحديثة، حكايات أقرؤها فـــي الكتب، هناك الكثير من الكتب، في كل مكان. أحيـــا الكتب والعالم، البلاد البعيـــدة وما وراء البحار، حتى شتاء الشـــمال الرهيب. وعن بلدي الذي أنتمي إليه، لا أقرأ شـــيئاً. أراه، ولست متأكدة من أنني أنظر إليه. وكنت دوماً منتبهة إلى بلاد الكتب.

بلـد مولدي، بلد أبي، ليسـت بـلاد كتبي التي قرأتهـا (بعد ذلك، كتبت وهذا البلد لم يغادر كتبي. في انتظار...). لا شيء، لا الكلمات ولا الصفحات، يضيء بلد أبي. في الغالب السماء زرقاء، البحر أزرق والشمس. أبي ينتمي إلى لغته، اللغة الغائبة التي يحفظها. أبي يحفظ لغته في الظل. لغة لا تتحدث، لا تغني، لا تؤسـطر. يترك للغة الأخرى مسـاحة كبيرة تصادر ما تبقى من مساحة الأخرى لكي تحتلها وتخصبها.

ولـدت في بيت كانت الفرنسـية لغته. لم يكـن للغة العربية وجود في البيت والمدرسـة. احتفظ أبي بلغة أمه في أرض معتمة، محرمة، حتـى يبعدها عن اللغة المغويـة. لا مزاحمة بين اللغتين. ظـل اللغة العربيـة صانها. صمت أبي، كان عليـه أن يخرس لغة سـرية، خفية. فهل لغة أبي ملعونة؟ هو ذا ما أعتقده حينما أجتاز السـياج وتلك هي الحـرب. هل حماني أبي من الشـيطان؟ قالت بنات المسـتعمرة لي، اللغة الأخرى، المتكتمة، الماكرة، لغة الجحيم التحت أرضي، لغة أبي ملعونة ومعها شعبه، وليس أرضه المحتلة، الأرض فرنسية، واللغة جزائرية.

وهكـذا، أحب أبي لغة أمي، إذ إنه أحب أمي، وليس لغة الأنوار الحاملة للعدالة والمساواة والأخوة.

***

Nouvelle parue dans L›ombre – a sombra, p. 135 – 136, Sigila, automne – hiver (*) .2005, Gris – France

من تحب الأشجار

كانت صغيرة، ابنة سبع سـنوات ربما. قالت أمها، وهي تتطلع إلى وجهها المدوّر، الذي يشـبه دميتهـا المصنوعة مـن الألياف، نفـس العينين الزرقاوين، نفس البسمة الفرحة: «ولكنه هو ! رأيته في نانتير، إنه هو ! يتكلم إلى التلاميذ، يسمعونه، يدعو إلى التمرد... لماذا؟ لا أعرف».

في الصحف كانت عيناه زرقاوين، شعره أشقر نوعاً ما. لا يسمعونه، وكأنه يتكلم.

تتذكـر كلمات أمها. التمرد، تعرف اليوم أنهم أسموه «مايو 68».

كانت تبلغ السابعة من عمرها، تقريباً. جدتها تروي الغابة في جبلها والغيلان الشرهة التي تترصد الصغار. ذهبت إلى الغابة، غير وحيدة أبداً، دوماً مع جدتها، في حكاياتها. لأن الغابة هنا... لا تعرف الأشجار، أين الأشجار؟ قرأت مع أمها حكاية الفتاة ذات القلنسوة الحمراء، الوحيدة في الغابة، غير الخائفة.

الغابة جميلة.

بلغت الخامسة والعشرين. دراستها في ألمانيا، الغابة معتمة، أشجارها الأولى، أشجار حقيقية. استطاع رجال أن يعيشوا فوق أغصانها. في المدينة الألمانية، سمعت اسم من دعا إلى التمرد. إنه هو. نفسه. رأته على شاشة التلفاز. يشبه الدمية التي فقدتها. يعمل في دار حضانة، كما قالوا.

تحب الأشجار.

لدى الخضر، يفكر الرجال والنساء حول مستقبل الأرض والأطفال. يتكلمون عن السماء والماء، الأشجار والحيوانات. تحكي الغابة الخيالية، غابة الطفولة والغيلان. قالوا لها إن الغيلان تلتهم الأشجار والصغار. يواجهون هؤلاء الغيلان الأوروبيين. تواجههم. تكتب إلى أمها أنها تعارفت إلى أشقر نانتير، بلحمه وعظامه. معاً يجوبان البلد، يجتازان الغابات والبحيرات، يدوّنان رحلتهما، يكتبان عن الأرض والمياه، الغابات والمزارع. يتحدثان إلى الفلاحين، الصيادين والمهندسين.

في فرنسا وجدت الخضر. ماتت جدتها. نسيت أمها حكايات الطفولة. لم تنسها. مهندسة المياه والغابات.... أرادتها أمها طبيبة أو محامية. تمتطي الحصان كرجل، أبداً في البيت... لم تتبع تقاليد نساء الجبل الجزائري، زوج، أطفال، منزل صغير نظيف.... متنقلة من بلد إلى آخر، عبر أوروبا... ماذا تعمل؟ لا تعتقد أمها أن ما تمارسه يعد مهنة: «تتنزهين، تمتطين حصاناً في الغابات، تدققين في الخرائط، تتكلمين في السياسة مع الرجال والنساء... فيمَ يفيد هذا؟ لا أفهم. لمن تعملين كل هذا؟ الأطفال، ليس لديك، زوج... ». ترد ابنتها بأنها ستكون نائبة أوروبية... «ورجل 68، في نانتير، وجدتِه، ألمانيا، فرنسا، الخضر... كل هذا... ربما كان هو... ربما تحبينه، ربما سيكون زوجك، أب أطفالك... ». تضحك الفتاة: «تعدد الزوجات ممنوع في أوروبا، أتعرفين، لا؟ ». «والأطفال؟ ما تعملينه طيب يا ابنتي، طيب... في القرية الجبلية، جرجورة، لا ماء ولا كهرباء، وهي بعيدة عن نانتير، فرنسا، هي أنت، ولدت في المدينة، وقريباً في بروكسل، حسن. ولكن الأطفال. تريدين الأشجار والمياه الصافية في القرية لمن؟ لمن يا ابنتي؟ ». «لك يا أمي وللآخرين، سترين. وحينما ترجعين إلى الوطن، كما ترددين، ستقولين إن الأشجار وطيور الترغلة جميلة وإنه لا يجب قطعها ولا صيد أي طير. سترين، ستقودين حركة الخضر في الجزائر... الأخضر لون الخير... أنت من علّمني هذا، وأنا أعتقده ».

تقـول الأم إنه يجب أن نحب الأشـجار، طيـور الترغلة والمياه الصافية للبحيرات وإذا اعتقدت ابنتها فيما تقوله، ستكون ابنتها زعيمة أوروبية... مع أطفال لا تلتهمهم الغيلان.

***

(*) Leila Sebbar , Celle qui aimait les arbres et le rouquin de Nanterre , collectif, Numéro unique, L,Europe, sous la direction de Jean – Luc Bennahmias et Betty Mialet, Les Verts, 1999, p. 154.

أختي الغريبة

إلى جرمين لاوست – شونترو

أرى امرأة على بغلة بيضاء.

غريبة.

ماذا ستفعل في قريتنا ومن أرسلها؟ إذا كان الشيطان، فأنا لا أرى مساعديه، الواحد على اليمين والآخر على اليسار.

امرأة وحيدة، على بغلة. لا يرافقها أحد، لا عم ولا ابن. تعرف الطريق. لا أرى خادمة على قدميها، ولا راعياً يقودها.

الغريبة، ماذا ستفعل في قريتنا؟ إنها شابة، عارية الرأس، بلا حجاب، ولم تتمنطق بحزام صوفي. في الشمس، يبرق شعرها بلون الذهب. هذه المرأة ليست امرأة. إذا دخلت إلى منازلنا، لن يبقى الرجال بها وسوف يختفي الأطفال من مهدهم. بحيث تتوقف الغريبة قبل البستان الأول، عند المدرسة. لم يبن بعد من قبل نساء جبلنا، والحوائط غير منتصبة حسبما القواعد، ولا الهيكل ولا السقف، ولا حتى عارضة من خشب قوي لكي تحمل المبنى، ولا حتى موقد. إنه بناء خالٍ، ويظل خالياً، وإذا سكنته المرأة، ستهتم به. دم الديك لن يحمر أعلى الباب، وجلد البقرة الأصفر غير متشقق، على الحائط.

إنه منزل الخائن.

تتقدم الغريبة، على البغلة البيضاء، نحو القرية. لا ينتظرها أحد. لم تعلن عن قدومها، والكبار لن يستقبلوها.

من طرف الطريق، تهبط، بعد بستان ثري قريتنا الوحيد، وتدخل إلى المنزل الملعون، حيث لن ترفع العارضة مهد الوليد، لا توجد عارضة ولا طفل. هذه المرأة وحيدة. سوف نغلق منازلنا. إنها عندنا، بدون رجل. لن تنتفخ بطنها مثل بطوننا، كل عام. لن يمارس أحد النسج لها، أي صوف سيكون مباحاً بين يديها. من يتجاسر.

هـذه المرأة ليســت امرأة، وحيــدة، مهملة من قبلنا، ســتبقى وحيــدة. أخاف من الغريبة. إنها هي ولا أعرف، من خطفت حبيبي، غائبــي. رحل. تــرك المنزل الخالي، بلا طفل فــي المهد المعلق، لا أشــعل ناراً، والجن ينتحب. غادر الباحة وشجرة الرمان، لم أر زهورها الحمراء. رحل إلى المدينة التي تتنزّه النساء فيها عاريات، كما قالوا لي، كما أعتقد، وهو يمشي في الشوارع، ويجلس إلى المقاهي التي تذهب إليها النساء ذوات الشعر اللامع، رأوه مع غريبة.

إذا كانــت تحمل رســالة من حبيبي، إذا كانــت تعلن عودة من أناديه كل يوم، عند الشــجرة المباركة، في الأعلى، شــعرها محلول، عارية حتــى الحزام، أجمل مــن غريبات المدينة، أجمــل من المرأة التي على طريق القريــة. أنادي الزوج الحبيب ثلاث مرات ولا يأتي. هذه المرأة ســتكتب لي رســالة ســيحملها الحمــام الزاجل، طائري المفضــل، إلى من تأخر عني. لن ترفض رســالة حب. الغريبة التي بلغت المدرسة ساحرة. سوف تخط الرسائل السرية لعودة الحبيب. لــم تخطف الرجل الذي أحببته، لــم تجعله يحيد عن الجبل، القرية، منزلي، الفراش الذي نسجته لكلينا.

إنها أختي.

فــي كل ليلة، تحت الوســادة، الحجاب الذي ســطرته الغريبة يحمينــي من الذئــاب التي تعوي بعدم عودته. لا أســمعهم. رأيت

المرأة جالسة قبالة صخرة السيل، تكتب لي، وقد ألهمها الماء النقي. ثوبها جفّ على الصخرة الملساء، ثوب مديني، بخطوط زرقاء وبيضاء، رفيعة في الأعلى وسميكة على قدها، لم أر حزامها، ولا أعرف إن كانت تمتلك مثلي حزاماً من الصوف. ضحكات وصيحات الغسالات لم تمنعها عن الكتابة. أغنية حب غنيتها بلغتنا في الجبل الموحش. أغنية عن حبيبي. تكتب، تجد، أكرر الكلمات والأبيات، أرى العلامات على الورقة، لا أعرف أن أقرأها.

ترحل الغريبة على بغلتها البيضاء، حاملة إلى المدينة رسالة حب مغناة.

سوف يعود حبيبي.

الغريبة، أختي، قالتها. قالت الحقيقة. هذا مكتوب.

***

.Leïla Sebbar , Etrangère, ma soeur , La quinzaine litteraraire , 1994 (*)

ابنة الخال

وحيداً، يجلس الطفل علـى المقعد، في هذه الساعة النهارية. اليوم الأربعاء، لم يكن لديه مدرسة.منذ استيقظ، هبط إلى الصالة التحتية، حيث تنتظره الجدة. تقبّله وتعاونه على الجلوس أمام الكوب الكبير الممتلئ بالقهوة بالحليب، فهو لا يحب شراب الشوكولاتة. تطلع، بدون أن يفهم بالطبع، إلى الأطفال البروتانيين[1] المصورين بأزيائهم الوطنية على كوبه. سوف تصحبه جدته من بلدتها إلى بروتاني. قالت له إنها سوف تصحبه يوماً ما، وهذا وعد، إلى حيث

يذهب سـائق الشـاحنة الآنتيلي[2]، المتردد على المطعم. أخبرته أنه موافق على الذهاب معها وحفيدها، ولم ينسـهما. سأل الطفل هل تشبه الشـاحنة ما نراه في الصور التي يقصها جده ويعلقها في الصالة. كان سـائق شاحنة قبل عمله في المطعم، هكذا عرف امرأته، عائلتهـا تمتلك مطعماً في بروتانـي. كان يتوقف هناك دائماً، حيث تقوم بخدمته في المطعم.

فـي بادئ الأمر، ألفاها حزينة. تتكلم قليلاً مع الرواد، وسـائقو الشاحنات يفضلون المرأة التي تضحك وتمزح، التي يستطيع المرء أن يقول لها أي شـيء دون أن تشـعر بالإهانة، مثل جميع النساء دائماً... يسمع الرجال يتحدثون عنها. علم أنها كانت متزوجة، وهي صغيرة، من بحّار هجرها إلى فتاة من الباسـيفيك ! اسـتقر هناك وطلـب الطلاق. في البدايـة، تلقت بطاقات سـياحية من الموانئ التي يقف فيهـا، الموانئ البعيدة، لم يقل لها إنه سـيذهب إلى هذه البلاد بدون عودة، مثل الآخرين الذين قابلتهم وقت الإجازات. البعـض أخبرها أن أحوالـه طيبة، غير مريض، ولـم يقولوا لها إنه يركض وراء الفتيات، وفي آخر الأمر، لم تطلب شيئاً. بطاقة سياحية كل ثلاثة أشـهر، يعلمها أنه يحب البحر والموانـئ والبلاد الواقعة خلف الموانئ، وأنه سـيعود محملاً بالهدايا، وأنها سـتندهش. لم يجهد نفسه في وضع البطاقة السياحية داخل مظروف، ولكي يرى الجميع الأشـجار والورود الغريبة والبحر، أحياناً شوارع الميناء، ولكن

أي ميناء؟ كان ساعي البريد كتوماً. يعطي البطاقة إلى أمها، حيث تضعها على الطاولة إلى جانب الهاتف بين خطابين مختومين.

إذا عاد ثانية، لن تكون لأحد سواه. ما فتئت تنتظره، حتى بعد الطلاق، كأنه سيكون هنا ثانية، بعد رحلة طويلة، محملاً بالهدايا والحكايات التي سيقصها في صالة المطعم الكبيرة وهو يلعب البلياردو. لم تعد ترى سائقي الشاحنات. تسمعهم، يضجون، يشربون، يصخبون، تساعد أمها في خدمتهم، أحياناً يمزحون غير أنها لا تجيبهم. في النهاية، اتفقوا على ألّا يبادلونها الكلام، حتى اليوم الذي كلمها فيه سائق الشاحنة المغربي. مكث طويلاً في الصالة، تناول قدحين من القهوة على الطاولة، لم يكن سائقو الشاحنات الآخرون موجودين، استطاع أن يتكلم معها وهي بدورها لزمت الصمت كالعادة. كان يعمل في الإقليم ويقيم في غرفة بفندق صغير. لا يعود ثانية كل مساء، إنه يقبض أجره كل ثمانية أيام، وإن لم ينم هناك لثلاثة أيام متتالية.

انتظرته.

لم تتكلم عنه، لا إلى أهلها ولا إلى سائقي الشاحنات الذين تعرفهم. حينما يكون موجوداً، وبينما يتابع الآخرون التلفاز أو يتحدثون، يحكي لها، بحيث يسمعه الجميع، وهو واقف قبالة الطاولة قرب الهاتف، وهي في الناحية الأخرى، لا تخدم أحداً

ولا تغسل الصحون. يهتم والداها بالجميع، خلال الأمسيات التي يتبادل الحديث معهما، كانت تسمعه.

لديه امرأة في قرية جبلية، هناك، لا يتحصل على بطاقة سياحية عنها لكي يظهرها لها، يصورون المدن والصحراء فقط للسائحين، وليس قريته التي يعيش فيها. لديه طفلان قبل أن يعمل في الإنشاء. أراد أن تأتي امرأته إليه، وأن تسكن معه في عربة نقالة، إلا أن أمه أخبرته بنبأ سيّئ. قالت، في خطاب حرره كاتب عمومي بالمدينة المجاورة، إنها امرأته «مسحورة». من أراد شرّاً بها؟ ربما ابنة الخال التي كان سيتزوجها إذا لم يحدث زواجهما؟ لكن ابنة الخال لا تعيش في نفس القرية، تزوجت وتبعت زوجها، التاجر الصغير بالمدينة. قبل أن تكتب إليه. فعلت أمه كل شيء لكي تشفي الفتاة التي لم تعد تأكل، ولم تعد تهتم بطفليها ولا بمسكنها. لم تكن شريرة، غير أنها ترفض العلاجات التي اقترحتها حماتها ولا تريد أن ترى معالجاً أو طبيباً بالمدينة. وافقت على الذهاب إلى فقيه مشهور، بعيد عن القرية، استمرت الرحلة على الأقدام نصف نهار، وعندما وصلت المرأتان، لم تود الفتاة الكلام مع الفقيه، فأخبرته الأم باسمها واسم ابنها، لذا لم تسر الأمور كما ينبغي، في حين أنها لاحظت بدقة الطقوس التي أداها الرجل العجوز. اقترحت على الكنة أن تزور امرأة مشهورة في الإقليم، لكنها لم ترد أيضاً. قلقت الحماة، كتبت إلى ابنها أن

يعود. عاد، لم تعرفه، أو تظاهرت، لا يعرف. قام بخطوات عدة لكي يعالجها في المشـفى. لم تقل شـيئاً خلال اليوم الذي اصطحبها فيه إلى المشـفى ولم تسـمع بكاء الطفلين. تركهما لدى أمه، وأخذ يراسلهم بالنقود، وكذا إلى امرأته المجنونة.

سمعت سائق الشاحنة المغربي. ساعدته في كتابة الخطابات. بالنسـبة إليه، تعلم العربية الفصحى إلى حدٍّ ما، يتكلم الأمازيغية والعربيـة، ولكنه لا يكتـب بأي لغة. تابـع دروس الهجاء هنا، في فرنسـا، وبدأ يدبر أمره، غير أنه، أحياناً، يجد الأمر شاقاً. لكي يكون سائق شاحنة، من الضروري أن يجري اختباراً صغيراً، امتحنه المدير، قال له إنه سيتابع دروسه مساء، فترك الأمر له. لكنه لم يكن دائماً في نفس المكان، والمدير يعلم كل شـيء. قدم له زميلاً كان يعمل معلمـاً بالجزائر أوائل سـنوات ما بعد الاسـتقلال. حينما رجع من الجزائـر هجر كل شـيء، المهنة، الزوجة، الأطفـال، تخلّى لهم عن المسـكن الذي ورثه عن أبويه في الشمال وانتقل إلى تصريح النقل الثقيل معه، تعلّم كل شيء بسرعة، لكنه اختار النقل الدولي وعملا معاً. تابع تدبير أحواله بمفرده. يستطيع قراءة الصحيفة، ولكنه في حاجة إلى شخص لأجل الخطابات المعقدة.

حينما اقترح عليها أن تغادر بروتاني لكي يقيما معاً في الإقليم الباريسي، لم ترفض. كرست وقتها للمراسلات الخاصة بالمقهى، إذ إنّ صديقاً برتغالياً من سـائقي الشاحنات رممها. ذهبت معه، في

الشاحنة، لرؤية المقهى. أعجبها. قررت البقاء. يقع المسكن في الطابق الأول، يصلان إليه عبر درج حلزوني، عند آخر طاولة الشراب.

جلب والداها فتاة من البلاد، ممتلئة الجسد قليلاً، ولكنها خفيفة الحركة وضحوكة. أثارت إعجاب سائقي الشاحنات.

يسقط الطفل الفطائر المدهونة بالزبد في الكوب البروتاني ويقول بملء الفم إن هناك نقاطاً من القهوة بالحليب على المعطف، الذي يريد أن يضعه إلى جانب السائق في غرفة القيادة، أعلاه. تمسح الجدة فمها بمزقة معلقة في حزام مريولها، تعرف الحياكة، تذهب إلى سوق سان – بيار، تملك أكثر من مريول ذي أشكال وألوان مختلفة، تحيك الأثواب والجوبات والصدريات، إلا أنها تمتلك وقتاً للحياكة. لقد ألبست ابنة الخال الشابة واحداً حينما قدمت إليهما بدون ملابس، بالضبط قدمت بحقيبة صغيرة من الجلد المغربي. ذات ليلة، سمعا طرقاً على باب المقهى، ثم على زجاج الطابق السفلي. قالت له ألّا يفتح الباب، بسبب الجرائم العنصرية في الحي، وإن ادعى بأن لا أعداء له، ومع الانتخابات، داخله الشك. لم يعلق ألبنتة، حكت له ما جرى فيما بعد.

فكر في الشرطة، ولم ينبس ببنت شفة لامرأته. تزوجا بعد وفاة امرأته الأولى في المشفى. أخبره المشفى. رحل لكي يساعد أمه ويرى طفليه. مكث معهم بعض الوقت قبل عودته. انتظرته طوال

ثلاثة أشــهر. تخيلت أنها لن تراه ثانية. لم يكتب، ولا حتى بطاقة سـياحية عن الصحراء، لا شــيء. وحيدة في المقهى، لم تبك أبداً، والمغاربة أصدقاؤه، لم يقولوا شــيئاً عنه حتى من أتى من هنالك، لم تسأله عنه. لم تفتح صندوق الخطابات ست أو سبع مرات يومياً، وساعي البريد يمر مرتين يومياً، وهي تعرفه.

ذات صباح، نحو الثامنة، عادت من المخبز، ويداها محملتان بالخبز المحكــم الصنع الذي تحبــه، وكذا الرواد. تركت البــاب مقفلاً. رأته، جالســاً إلى الطاولة، حيث يجلس الطفل يتناول إفطاره، مســتقبلاً، كل يوم مكانه المفضل. يحتســي القهوة الغامقة، كما يحبها دوماً، يحتسـيها كثيراً، سوف تضرّه... ابتسم لها، ساعدها في وضع الخبز على الطاولــة المجاورة، قال لها: «أنــا ذا...» وقالت له: «أنت هنا، أنت هنا، هذا حقيقي، أنت»، وأنشأت تبكي على الخبز.

سمعا الطرق. لم يزل الطرق قائماً منتظماً، ملحاحاً. ارتدى ملابسه. إذا كانت الشرطة، لا يريد أن يكون واقفاً أمام هؤلاء الرجال بالمنامة. رأته يدخل إلــى صالة المقهى حيث تجلـس، صحبة فتاة ترتدي السواد، بوشاح أسود حول رأســها. تكلما بالعربية أو الأمازيغية، إذ إنها لا تفرق بينهما، اليوم تعرف إذا كان الزبون أمازيغياً أو عربياً لما يتكلم وزوجها، لا تفهم ما يقولانه، غير أنها لا تخطئ ألبتة. يتكلم الطفل الفرنســية، لكنه يلهو بنطق كلمة بالعربيــة أو الأمازيغية، يقول إنه ســيتعلم اللغتين حينما يصبح طالبــاً. يدير الأغاني في

صندوق الجوك[3]، أغاني الجد وليست «التوب خمسين» المذاعة في التلفاز، هذه الأغاني، يسمعها في صالة الطعام بالطابق الأول، أو يديرها الأصدقاء حينما تريد الجدة أن تسمعها.

لم تأكل الفتاة، أعدت لها قهـوة بالحليب وفطائر وبَيضاً. لم تضع حقيبتها على الطاولة بل أمامها على الأرض. الزوج لا يتكلم. يتطلع إليها. قالت إنها سـتذهب تعد فراشاً لها، في الغرفة التي لا يسـكنها أحد، فقط يقيم فيها طفلا زوجها عندما يأتيان لزيارة أبيهما في الإجازات.

إنهـا ابنة خـال لا يعرفها. تقيم في القريـة المجاورة، يعرف أنهـم أودعوها لدى عائلة ثرية، لكنه لم يسـمعهم يتكلمون عنها. بدون أن يقسوا عليها، كانوا يجعلونها تعمل من الفجر حتى الليل. أرادت أن تسـتغني عن عائلتها، قالوا أنهـا تمتلك حظاً عن بقية الفتيات من عمرها، سـواء كنّ في مسـاكن آبائهن أو في الشارع... تكلمت مع خادمات أخريات، في مسـكن كبير فقط. بكت ولم يتغير شيء. أجرت بمفردها، سرّاً، الخطوات التي قادتها صوب ابن العمة، وهاهي ذي الآن هنا.

ينظر الزوج إليها في شـك. كيف استطاعت، وبدون مساعدة من أحـد، اجتياز كافة العقبات كي تصل إلى هنا؟ تحكي، بالفرنسـية، حتى تفهم امرأة ابن عمتها. تتكلم كثيراً. سـألها ابن العمة إذا كانوا

يبحثون عنها، أجابت لا، كشــفت له عن أوراقها، ســليمة، لم تشأ أن تفعل مثل صديقة قابلتها في الحمام لأول مرة، علمت أنها ستترك البلد لكي تتزوج «زواجاً أبيض»[4] يمكنها من البقاء، لكنها لا تستطيع العودة إلى بلدها. تقول إنها ســوف تكتب في الغد لأمها كي تقول لهــا ألا تقلق، وإنها لدى ابن عمتها، ســتذهب إلى العمل وســتعود لرؤيتها أو ستأتي هي إلى فرنسا، وقتما أرادت، ريثما تمتلك مسكناً.

ظلت ابنة الخال أكثر من عام في المقهى. لم يكونا في حاجة إلــى معاونة، غير أنهــا عاونت. اقترحت أن تعد طعــام أمها، ولذا سيأتي الرواد المغاربة من الضواحي المجاورة للأكل لديهما. لاحظت المرأة شــاباً مغربياً مداوماً على القدوم، دائمــاً الأول في منتصف الظهيرة، والأخير بعد خدمة المساء. لا يتكلم أبداً إلى الفتاة مباشرة. يتوجــه إلى المعلم، حتى وإن وجه الــكلام إليها. يأتي دائماً، حتى اليوم الذي رفض المعلم فيه أن يخدمه، كانا سيتشــاجران، لم يسبه الشــاب، لكنه لم يرد الخروج، أمسكه من العنق، تعاركا على الطوار، وطلب منه استفسارات. كانا بمفردهما. شاهدت الزوجة وابنة الخال المشهد متحجرتين في مكانهما عند الطاولة. رأتا الرجلين يتحدثان بصوت خفيض للحظة، ثم رحل الشاب فجأة بلا تحية ولا وداع. لم يعد يراه أحد في المقهى ولم تقل ابنة الخال شيئاً.

اقتــرح الرجال على ابنة العمة أن يزوجهــا، كانت ترفض دوماً. أصــرّوا، قدموا لكي يقنعوه، دائماً كانوا رؤســاء على شــاحنة أو في

مؤسســة صغيرة، كانوا عزّاباً. تحدثت الزوجة وابنة الخال عن هؤلاء الرجــال الذيــن يأتون كل يوم لأجلهــا، لكن الفتــاة ترفض بإصرار اقتراح الزواج. تطلــب المرأة منها حججاً، تجيبهــا بأنها لا تعرفها، لا تعرف أي شــيء ألبتة. في النهاية، لم يتكلما عن طلاب الزواج ولا عن عاداتهم والرجال وهنت همتهم. تابعت عملها في طهي طعام أمها، وبالنسبة للرجال، كانوا يتوافدون، ولكنها كانت كما الغائبة. لا تخدمهــم، هكذا قررت. لا تريد أن تحس بهذه النظرات التي تتصنع عدم النظر إليها، ولن تخفي وجهها لكي تخدمهم. وافقت الزوجة.

سأل الطفل إذا كان مسكن الجدة يقع بعيداً عن البحر، وأننا من الممكن أن نرحل في قارب كل صباح للصيد. الجدة ترتب الطاولة، تمســح فُتات الخبز وبقع القهوة بالحليب، تقول: «بالتأكيد، هنالك البحر، والقوارب التي تريدها، ســنذهب، سنرى... الآن، ارتدِ ملابسك للمدرسة، أسرعْ، أسرعْ، أسرعْ، سأعد سندويتشك لأجل العشر ساعات في المدرسة». يتطلع الطفل إلى الجدة، قبل أن يركض صوب الدرج الحلزونــي. له عينا أمه، عينان ســوداوان كحبتي زيتون، منتفختان، واسعتان نوعاً ما، هكذا فكرت الجدة، على وجه صغير. حينما تنظر ابنة الخال إليهما، لا تعرف ما تقوله، كأنها تخاف عينيها. تسألها إذا كانــت تريــد العودة إلى مســكنها أو أن تظل هنــا، وإذا كانت حزينة أو فرحة. تآلفتا، لكنهما حينما تعملان بعد الإغلاق، أو الأحد علــى الطاولة الكبيرة في الصالة لكي تحيكا الأثواب أو الصدريات،

تتكلم ابنة الخال قليلاً. تتفاهم سريعاً، غير أنها تجيب بالكاد على ما تقوله المرأة التي لم تعد تطرح عليها أي أسئلة.

يتجنب الزوج الكلام مع ابنة الخال. حينما خاطرت المرأة بإعطاء بعـض الملاحظـات عن صمتها وحزنهـا ورغبتها فـي العودة إلى مسكنها كانت تتكلم وهو لا يجيب، لا يناقشها. أكثر من مرة، غضبت، فقال زوجها لها: «لمـاذا تصرخين؟ إذا أردت، أقول لها أن ترحل». منـذ ذلك، صمتت لم تعد تتكلم عـن ابنة الخال. اعتادت على هذه الفتاة الصموت، الطاهية الماهرة، النشـطة، لكنها الآن غير سعيدة، إذا لم يتحدث أحد معها ماذا تستطيع أن تقوله في المسكن؟ الكلام مع الرواد، نعم، لكن مع زوجها رغبت أن تبوح بما يشغل ذهنها، وهو لا يسمعها منذ أحس بأنها ستكلمه عن ابنة الخال.

قررت أن تمضي أسبوعاً في بروتاني لدى عائلتها.

يوم رحيلهـا، أخبرتهما ابنـة الخال أنها سـتذهب كي تقيم فتـرة لدى جارة التقتها صدفة في السـوق الكبيـر. دعتها، لديها غرفة، أختها الكبيرة، التي تسـكن معها، عادت إلى المغرب حتى آخر الشـهر. لم تتكلم كثيراً. عيناها السوداوان تلمعان عادة، كأنها تبكي، غير أنها لم تبك. لم ترها الزوجة بالدموع سـوى مرة واحدة، هـذا اليوم الذي قرأت فيـه كثيراً الخطاب الذي أرسـلته أمها لها. قالت لهـا إنها لن تراها أبـداً طالما لم تتخلص من السـحر لأنها

متأكدة، بعد زيارتها للالا مريم، أن ابنتها لم تحسن التصرف حسب رأيهــا. كانت لالا مريم متأكدة أن من أذنها فرنســية، تقطن معها في نفس المســكن، وأنها نصحتها بإرسال غبار في تعويذة حتى تطرد العين الشــريرة من مسكن فرنســا والأرواح الشريرة من رأسها إذا لــم تتبع بدقة نصائح لالا مريم. ســألت امــرأة ابن العمة لماذا تبكي. جلســت إلى جانبها واحتضنتها. كانت تبكي وعيناها غير حمراوين، فقط ســوداوان ويائستان. دست ابنة الخال الخطاب في جيب صدريتها، ومسحت دموعها، ولم تقل شيئاً. بعد ذاك، تلقت الغبار الســحري، حفظته في التعويذة، التــي تعلقها في رقبتها. أرســلت نقوداً إلى أمها التي لم تعد تكلمها عن الســحر ولا عن لالا مريم. لم تضع ابنة الخال الغبار في شراب المرأة.

حينما رجعــت إلى مســكنها ومقهاها، كان زوجهــا ينتظرها بعشاء احتفالي، أعده لها.

اشــترى شــموعاً، وأخرج الأطباق الجميلة. جلبت معها محاراً من أورليــان، تعلم أنه يحبه منذ كان ســائقاً في بروتاني وشــارانت – ماريتيم، حتى بوردو، يجوب الأقاليم، دائماً الأصداف تعطي محاراً. كانت ابنة الخال غائبة هذا المساء. في الغد، ذهبت امرأة ابن العم لكــي تعود بها من عنــد صديقتها. قالت إنهــا لا تود العمل في المقهــى، تبحث عن عمل في الطرقــات وغرفة في الميدان، أصرّت المرأة ووعدتها بأنها ستتركه ريثما تجد مكاناً آخر.

مكثت في المقهى لأنهم يعطون الوظائف للفرنسيين بداية، ووقتما تتحصل على أوراقها الفرنسية سيكون الأمر سهلاً. لم تذهب إلى دار البلدية ولا إلى المقاطعة. تتكلم مع المرأة قليلاً كأنها تتجنبها، وفي كل مرة تجد نفسها أمام ابن عمتها، تطرق رأسها كأنها باحثة عن مهرب. فكرت المرأة أنها لن تصبح سعيدة لديهما واقترحت عليها أن تمدها بنقود الرحلة. لم تفعلها لأن زوجها كررها، في كل مرة يتحادثان فيها، أن ابنة الخال لا تريد أن ترحل من فرنسا، قبل أن تحوز أوراقها الجديدة، المنشغلة بها، وفي اللحظة المناسبة سترحل وسيحضران معاونة جديدة.

لا تريد ابنة الخال أن تحيك يوم الأحد. ذهبت إلى صديقتها في نهار الاثنين. ترتدي قميصاً واسعاً كقمصان الرجال، على الموضة. لا تخرج ألبتة، وحينما تعمل في المقهى تغلق غرفتها عليها أو تذهب إلى صديقتها. امرأة ابن العمة تراها بالكاد. حتى جاء نهار، جلست ابنة الخال، بعد مجهود كبير، دائخة وأسقطت سطل المياه عند قدميها. ركضت امرأة ابن العمة، تريد أن تفك أزرار الصدار، فصرخت ابنة الخال، حامية حنجرتها بيدها، وبطنها باليد الأخرى. تبتعد المرأة، وتعاود ابنة الخال عملها.

في المساء، تحدثت وزوجها كثيراً. صمت. حكت له المشهد. أكدت أن ابنة الخال حبلى: «حينما كنت في بروتاني، ولكن من هو الأب؟ لم تقل شيئاً». ولم يقل الزوج بدوره شيئاً. «ماذا ستفعل؟

إنها غير متزوجة، ستتركه، الوقت متأخر على أي حال، لكن المرأة لا تريد طفلاً بدون أب وهي وحيدة، كيف ستربيه؟ ». أجاب الزوج: «إذا أردت. سنحتفظ به ».

«إذا أرادت، قالت المرأة ».

«ستوافق، أنا متأكد، لكنها سترحل، قال الزوج ».

بدون إجراءات شكلية، تخلت ابنة الخال عن الطفل. لم تقل لهما أين ستذهب. رحلت، ولم يتم الطفل أسبوعه الثالث. لم ترسل بطاقة سياحية أو خطاباً تبين فيه أنها حية وتسأل عن صحة ابنها. لم تفعل شيئاً.

خلال سبع سنوات، كان الصمت حاضراً، امرأة ابن العمة، كل نهار حتى المساء وقتما ينام الطفل تنتظر عودة الأم، ابنة الخال. لا تريد أن ترد الطفل إليها. إنه لها، ربته، كان سيموت، لولاها، مخذولاً في حديقة عامة أو في ملجأ. إنه طفلها، تحبه، لن تتركه يرحل أبداً، بالحري يموت. مع زوجها، لم يعودا يتحدثان عن ابنة الخال، فقط يتحادثان عن الطفل الذي يحبانه كابنهما. حينما يعود من المدرسة تحتضنه بين ذراعيها، تقبله كأنها تراه للمرة الأخيرة، وكأنه لن يعود ثانية، يوماً ما؟ تضمه بقوة، يعترض زوجها ويطلب منها أن تعد غذاء له، بدلاً من خنقه. لا تبكي أمام الطفل. يتحدث إليهما، وهما جالسان على الطاولة البنية الغامقة.

ينتظر كوب القهوة بالحليب، الكوب البروتاني، الذي أهدته جدته له. تدهن الفطائر بالزبد، تتكلم معه، تسمعه، يضحكان كثيراً، فقط عندما لا يريد أن يذهب إلى المدرسة وبعد العشاء، وهو يقرأ صفحة أو صفحتين قبل خلوده إلى النوم. تغني مهدهدة باللغة البروتانية، تعرف أغاني الطفولة بهذه اللهجة التي نَسِيَتْهَا، كانت جدتها تكلمها بها لأنها لا تعرف الفرنسية، لم تذهب بتاتاً إلى المدرسة، إنها تغني له، في المساء، قرب فراشها، بلهجتها الأم والآن تجد الكلام للصبي. ينام وهي تقول: «كذا وكذا...». بين الفينة والأخرى، يفتح عينيه السوداوين الواسعتين الغامقتين نوعاً ما اللتين تدهشانها. تسمع الموسيقى العربية من صندوق الجوك والرجال يضعون الأسطوانات، البعض لا يعرف القراءة، يدوسون بأصابعهم على الأزرار بالمصادفة.

لم تر شيئاً، المرأة لا تنظر عبر النافذة، في الساعة التي يأكل الطفل فيها، على أفضل طاولة في المقهى.

تراقب الطفل منذ أيام طويلة.

يصل الطفل إلى الصالة، الحقيبة على ظهره، تدس جدته سندويتشه المغلفة بورق الألمنيوم في الجيب الداخلي لمريوله. يشب على أطرافه ويقبلها، إنها أطول منه.

«إلى اللقاء يا صغيري». في الشارع، يلتفت ناحيتها، عند

باب المقهى، يشـير إليها، ترى عينيه، تبدوان صغيرتين، وهو يكبر، وستظلان دوماً سوداوين وقويتين وجميلتين.

يذهب الزوج إلى الأسـواق. تعد الخضروات للظهيرة. لن تكون المعاونة هنا قبل الحادية عشـرة والنصف. تدير الإذاعة، كالعادة، تسـمع، يطلب المذيع الاهتمام من المستمعين. تسمع: «تم خطف طفل في السـابعة من عمره تقريباً، في اللحظة التي التفت فيها إلى الوراء، دفعته امرأة إلى سيارة سوداء تنتظرها إلى جانب الطوار قرب مدخل المدرسـة. هي ذي ملامح الطفل: سـبع سنوات، عيناه سـوداوان، واسـعتان ويقظتان، يرتدى قميصاً وبنطـالاً من الجينز، حقيبة حمراء وخضراء. كل شخص... ».

***

Leila Sebbar, La cousine, in: Anthologie de la nouvelle maghrébine, éd. par James (*) .GAASCH, Casablanca,. EDDIF, 1996

1- إقليم بروتاني الفرنسي.

2- جزر الآنتيل، مستعمرة فرنسية.

3- صندوق موسيقي، سمي على اسم مخترعه.

4- زواج يسمح بإنهاء أوراق الإقامة وخلافه.

الفتاة ذات الصدار الأحمر في بابل

بعيداً عن الزمن، الأندلس القديمة وأبيات الشاعر الملعون، المنفي من قرطبة، طوق حمامته المفقود، بعيداً، منذ قرون وقرون... جيركو في فلسطين، الصحراء قريبة للغاية... توابيت سراييفو، النوارس، على الموجات المتلاحقة، تصيح في أذن هؤلاء الأطفال:

القذرون الذين يصنعون الحرب والجنود يتساقطون صرعى، دوماً يقولون «يا أمي!».

في بابل اليوم، هناك سيارات، ألف، عشر

آلاف، ثلاثـــون ألفاً، النهار، الليل، في ألف ليلـــة وليلة، كم؟ هناك الإعصــار، الريــاح، المطر، الوحــل على المرج الــذي يمتد على طول الطريق، أربع طرق للسيارات.

منظر فقير، للفقراء.

من الممكـــن النظر طويلاً إلى رمادية الســماء، الأشـــجار، تعبيد الطريــق، الحواجز، يقــال – رمادي، والرمادي ســيبقى رمادياً وكيف نرى ما هو رمادي– إننا نســتطيع أن نولد، أن نحيا، أن نبكي ونموت رماديـيــن. ولكن إذا لم يلتهم اليأس قلبنـــا، تبقى الأعين مفتوحة، ونستطيع أن نرى الأحمر، في البعيد، يركض على الشارع.

ننتظـــر، حائرين، على الضفة الأخرى المطلية بالأســمنت التي توقف الوحل الأخضر. ننتظر، كامرأة في نافذتها، غير صبور، يجب ألّا نغلـــق الأعيــن، والضوضاء لا تصعد إلى أعلـــى البرج، كأننا في صحراء.

الفتاة ترتدي صداراً أحمر.

تبرز الأكواخ الصفراء وعربات الســكن على الشارع، وقد هجرت الأعشـــاب الموحلـــة والأمطار، منغلقة على نفســـها وتنفث كلمات غريبة.

الفتاة ذات الصدار الأحمر.

من لغة إلى أخرى، بابل الحلزوني، الوحل يلطخ البنطال الأسود المنتفـخ، الصدار الأحمر وثب من طوكيو إلى باماكو، من الجزائر إلى برلين، من موسـكو إلى طهران، بكين، نيويورك، داكار، الإسكندرية، باريـس... التباس اللغات، حيـث تصدح الكلمـات، وحيث يفقد المعنى وجوده خلال الضحكات.

هل بابل هي الجنة أو الجحيم؟

تحمل الفتاة حمامة في يدها، حمامة بيضاء وثرثارة. الشـارع أصبح بحيرة، الأكواخ أصبحت قوارب بأشـرعة، والفتاة ذات الصدار الأحمر، قائدة أسـطول. الألواح العملاقة أشرعة تتكلم عن التنانين في الغابة، عن المسخ والمتاهة، عن العبيد والسادة. من الشرق إلى الغرب، الحروف، التي تشير بها الفتاة، تهبط البحيرة إلى البحر.

***

Leïla Sebbar , La jeune fille au gilet rouge dans Babel , Lieux d›être, Spécial parfums, (*)
.été 1993, Marcq – en – Baroeul

الياسمين

المرأة، جالسة إلى دكة خشبية قبالة الحائط الأبيض، الرأس بامتداد الخط اللازوردي التي رسمته بريشة قديمة، العينان مغلقتان، الوجه ممدود نحو المقبض الأخضر الخفيف للباب الواطئ. عريشة شجرة الياسمين، في الفناء المربع، عجوز، إلى حدّ أنّ أحداً في البيت الأبيض يتذكر من الذي غرزته، ولا حتى زهرة العسل[1] ولا رعي الحمام[2]. لا فناء، وإنما حديقة صغيرة نوعاً ما، تمتزج فيها رائحة الفلفل الأحمر الحلو المسحوق بحلاوة الياسمين وزهرة العسل وحموضة رعي الحمام الحلوة.

ظلت يدا المرأة، الكبيرتان والمفلطحتـان، الثقيلتان على ثنايا ثوبها، ساكنتين. نراها تتنفس، في بطء، جانـب الورود البيضاء الصغيـرة فـي الظل الأخضر. تقـول، بدون أن تفتـح عينيها: «لا يمتلكان نفس رائحة ورود حقول الياسمين».

طوال اليوم، والأيام السـابقة أيضاً، جنت مع أخريات، جارات، أخـوات، بنات الأعمـام والأخوال، أمهـات وبنات، الياسـمين من الحقول، لبعض من المال... لا يهم. يتبادلن الأحاديث وسط السلال الواجب ملؤها، والضحك، فيما تغني الفتيات الأصغر سنّاً، والرجال الواقفـون بعيداً لا يراقبونهم. في المسـاء، تتسـاقط، الصغيرات فـي البداية، على بلاط الفناء تحت شـجرة التين، العجائز يترنحن، نشـوانات، يتبادلن الكلام في آنٍ واحد عن الحب حتى قدوم الليل، يغنيـن القصائـد القديمة المعروفـة وهن على علم بـأن الرجال يسـمعونها عن بعد، حتى وإن ادّعوا أنهم لـم ينصتوا إليهن، إلى صوتهن المحمل بالظل والياسمين.

من يجهل أن الياسـمين وردة الحب؟ لـم يقلها أحد والأطفال في حضن الأمهات اللاتي يجنين الورود يستنشقونه، وقد استثارت حواسهم، مع رائحة العرق الأمومي.

بيـن ثنايا الثوب، الكثيرة والناعمـة، نامت طفلة صرعها عمل الحقـول. المرأة، قبالة الخط الأزرق للحائط، لم تتحرك. يداها تلمس

بالكاد شـعر الطفلة. تقـول، وعيناهــا مغلقتان: «أفضــل رائحة ياســميننا، الناعم، الرقيق، ياســمين البيت، كما هو منذ زمن طويل، ياســمين لا يموت أبداً». تغني بصوت خفيــض أبياتاً غنتها أمها في نفس المكان على الدكة البيضاء، وهي، فتاة صغيرة تنام على فخذيها القويين، تعبة بعد جني الياسمين في الحقول.

يرجــع الرجال متأخرين إلى البيوت. المــرأة التي تحمل الطفلة النائمة بين ثنايا الورود، ورود مطرزة على حرير الثوب الأخضر، هذه المرأة ذات اليدين الكبيرتين المفلطحتين الســاكنتين دوماً، تسهر، الوحيدة التي لم تؤوب إلى فراش الزوجية. تنصت إلى سهر النساء العاشــق في غرف البيت. لا تنتظر الرجل الذي هجرها لأجل الضفة الأخرى والأحلام الأخرى، لم يبقه الياسمين، ولا الطفلة، ابنتها التي تنــام، والتي لا تعرف أنهــا موعودة لابن مالك حديقة الياســمين الأصغر. تفكر المرأة في صرة المال. والياســمين ســيكون عقد لؤلؤ رقيق، وستكون لابنتها يدا فاطمة الذهبيتان المنحوتتان والكبيرتان عن كونهما يدي طفلة...

غير أن الطفلة غادرت ســريعاً فناء شجرة التين، شجرة ياسمين البيــت والحقول. ومن الناحية الأخــرى للبحر، بلا أم ولا زوج، ضاعت ابنتها. ولن تعود أبداً.

في فندق فرنســا حيــث تعمل عاملة نظافــة، تجلس في ممر

الطابــق الثاني، منتظرة أن يخلي الســاكنون الغرفــة رقم 7. باب ينفتح، ينغلق. رجل وامرأة متشابكان يمضيان، بدون أن يراها.

على عتبــة الغرفة، تختنق. بالكاد تكفــي بضع ثوان كي ترى حول الفراش، في عقود مضمومة، يتعفن الياسمين.

* * *

(*) Leila Sebbar , Le Jasmin , in: Lieux d etre , Special parfums , Ete 1993 , Macq – en – Baroeul

(1) جنس نبتة معترشة دائمة الخضرة تستعمل للتزيين. (المترجم)

(2) جنس نباتات برية وتزيينية من فصيلة الساجيات عديدة الألوان وعطرية. (المترجم)

نخيل

وقف قبالة الجدار الحجري، في أقصى يمين الطوار الضيق الذي يحاذي الشارع المبلط. منذ متى وقف ثابتاً في زيه الأخضر[1]؟ يمسك بين يديه عصا خشبية، كجندي في خدمته. لا يضع على رأسه خوذة فروسطية، وإنما قبعة بمقدمة طويلة، ولذا نرى بالكاد عينيه. يرى أمامه. ساكن الحركة. أمه، العجوز السمراء القادمة من الريف، قالت له، بواسطة العراف[2] الذي يقابله كل يوم في البناية، رجل من نفس القرية، طويل، شعره رمادي، نحيف في ملابسه القطنية البيضاء،

وكرر العراف، ذات مسـاء قرأ الرسـالة فيه التي كتبت لأخيه وله، وكلاهما يعيشـان في فرنسا، في بلاد المياه وأشجار التفاح، أنهما سـيصبحان، الأكبر والأصغر، ملعونين إذا نسيا حوالة العائلة. في كل مـرة يجلس فـي الباحة الصغيرة للبناية التي سـيهدمونها، يتجـه الفقيه نحوه ويذكره بكلمات أمـه، ويطلب منه أن يعيدها على أخيه الذي لا يأتي أبداً إلى المسكن. يتقابلان كل صباح أحد، في مقهى حيث يلعبان رهان سـباق الخيول. أخوه، هو، لا يريد أن يستقل المترو ثم الباص لكي يبلغ المسكن. يخاف من العراف لأنه يقول نفس الكلام في كل مرة، نفس الملاحظات، نفس النصائح، لكي يتذكر أن له أمّاً وأن الأب متوفى، وأنه بالكاد عرفه، كان لديه عدد من الزوجات، وأنه وأخاه من نفس الزوجة. الرجل الذي يرتدي زيّاً أخضر، الأخ الأكبر، لـم يتحرك في مكانه، عيناه مثبتتان على جدار البناية التي على وشـك هدمها، مثلما يقطعون شجرة. غادر العمال الساحة، منذ بضع ساعات. سيدكون البناية. شقوق الجدار تنغلق على سـاحة مربعة. الشجرة في وسطها، يخاف أن تختفي وقتما تأتي الناقلات في الصباح الباكر ولن يراها أبداً. في القرية، هناك شجرة.

الأجداد، قبـل أجيال عن جيلنـا، ناموا وتناقشـوا على التربة الحمراء، اليابسة وإنما العطوف، في ظلال الشجرة. قالت أمه، لأخيه ولـه، لم يحص بعـد، حتى الأجداد الأولين، من غرس الشـجرة. من

يريدون قطعها لكي يقيموا طريقاً عريضة أو بناية، متبعين خرائط وضعها زنادقة، سيموتون حتى قبل أن يحطوا رحالهم في القرية، الواحد تلـو الآخر، كما تنبأ الفقيه، قبـل أن يلاقينا في بلاد المياه وأشجار التفاح.

الرجل واقف، ينظر إلى السـاحة بالجهة الأخرى من الشارع. لم يـأت العمال بعد. على الحائط، بعد السـاحة، فـي الأقصى، ربما الجـدار الأخير لغرفة ما، هناك جدارية لـم يخربها العمال بعد. من طرف الجدار الذي ينحني أمامه دائماً، يرى الرجل نخيلاً وسماء.

النخلات العملاقة خضراء. يقال إنها تهتز.

فجأة، يقفز الرجل. أحدهم ركل المكنسـة المصنوعة من النخيل. كاد يفقد الاتزان. أغصان من البلاسـتيك الأخضر، تنسـاب في مياه المجرى وتتلاشـى في جانب من الشـارع. رجال ونسـاء يرافقونها. يتحـدث بصوت عـالٍ مع مصـور الصرعـات، ثم يقدم أخـاه إلى الفريق:

- إنه أجمل مني، أليس كذلك؟

يتناول منه مكنسـته ويدفعه إلى وسط الشـارع المبلط، قائلاً للمصور:

- خـذ لنا صـورة نحن الاثنين... سـترى، ستسـبب حزناً... أو

بالأحرى، هو بمفرده، بزيّه الأخضر، زيّ الكناسين، مكنسته ذات الراية... فيمَ تفكر؟ إذا كنت تفضل، سأمسكها، سأمسك رمز الصرعة...

ينفجر في الضحك.

المصور نافد الصبر: – ليس لديّ من وقت أضيّعه... كفّ عن هرجك. افعل ما أقوله لك. لدينا سلسلة من الصور. ستذهب إلى الناقلة لتطري نفسك بالمساحيق... سنعد الإضاءة... حينما أناديك، تعال.

الرجل الذي ينظر إلى الجدارية على الجدار الأخير للبناية التي يهدمونها، يدخل إلى الساحة المربعة، يتجه نحو النخلات الخضراء المرسومة على الواجهة. لم يتخل عن مكنسته. يركنها إلى جانب قطعة من السماء ويربت بيده على أخضر النخيل، كان البعض جافاً فيما البعض الآخر رخواً. اليد السوداء تمسح الجدارية. لا يعرف الرجل أن المصور تبعه إلى البناية. شجرة القرية ليس بها سعف.

بيد أن الأشجار، على أول البحر الأشد زرقة عن سماء الجدارية، هذه الأشجار تعطي الأمواج والرمال سعفاً أصابتها العواصف. كم من السعفات جمعها لأمه وجده ونساء أبيه... لم يساعده أخوه أبداً. يختفي أياماً عديدة في المدينة القريبة، وحينما يصل، يسخر

منه، ويتفاخر مذعناً وباحترام عما فعله في المدينة، مع النساء والمال واللهو... كان الأجمل.

يمشي الأخ في وسط الشارع المتلألئ. خياط كبير يلبسه ملابسه. يرتدي قميصاً يشبه الدرع، قميصاً من نسيج قوي ولامع، فضيّ، نتخيل قوة العضلات. كان مرتدياً كما جندي فيلق روماني جوباً من الجلد الموشّى بالمعادن. يرتدي واقية ركبة من الحديد الأبيض وصندلاً جلدياً مربوطاً على ربلتي الساقين. احتشد الناس، وأنشأوا ينطلعون إليه. اعتمر قبعة مدورة كأنه يعتمر خوذة. اعتقد الناس أنه يمثل فيلماً، آنطوان بدون كليوباترا... كما قيل. كان وجهه مطلياً بالمساحيق. يبتسم.

اختفى المصور. أنشأوا يبحثون عنه.

في البناية تحت الهدم، راح يصور الرجل الذي يرتدي الأخضر وهو يدير ظهره إليه. تناول المصور المكنسة ذات السعف الأخضر، واتجه نحو المانيكان، وقال له: خذ عصاك... سيفرح باكو[3]. لم يتخيلها... ومع ذلك...

ضحك المصور هازئاً: «سأزوده بأفكار لأجل مجموعته القادمة... ماذا تقول؟».

قذف المانيكان بالمكنسة إزاء الحائط، خلع القبعة ومزق

القميص الصلب قبل أن يلقيه إلى الجانب الأيسـر. يمشـي صوب مصـور الصرعات الذي التجأ إلى داخل البناية. لا وقت لكي يختبئ خلف جدار السـاحة، إذ أمسكه الأسمر من ياقة قميصه وطوّحه نحو نخيل الجدارية.

* * *

(*) Leila Sebbar , Palmes , Confluences , L Harmattan , Paris , 2002.

(1) يرتدي عمال النظافة، وهم في أغلبيتهم من الأفارقة، زيّاً أخضر، قبعة خضراء، مكنسة ذات سعف أخضر، عربة قمامة خضراء.

(2) في أحياء باريسـية مثل باريس وبيلفيل، يمتهن عدد كبير من الأفارقة مهنة العراف. يوزعون بطاقاتهم عند الخروج من عربات المترو.

(3) كبار الخياطين الباريسـيين يسـتخدمون عارضين، وبالأخص عارضات أفارقة أو من جزر الآنتيل. انظر موديلات باكو رابان.

الفتاة ذات الحذاء العسكري

إلى جميلة – دانييل عمران – مين

سمعت امرأة تقول إنها ابنتها.

تسري الهمهمة من سطح إلى سطح آخر، من فناء إلى فناء آخر، حتى داخل الغرف... همسة، همهمة على الدكك الحجرية، في رذاذ المياه الساخنة على أجساد النسوة ضائعة في تجاويف الموزاييك الأخضر والأزرق، كانت الشائعة، صوت الشيطان على لسان أفعى، الشائعة التي تتكلم بصوت ناعم وتردد بصوت خفيض في الأذن المرهفة الخبر السيئ، الشائعة التي تقتل. كانت جالسة، مستقيمة، الساقان ممدودتان، مغطاتان

بمنشـفة الحمام الكبيرة. تتبادل شـابات وعجائز الأحاديث وسط العرق، القذارة والرغوة، هل تراها النسوة؟

يتبادلن الأحاديث فيما بينهن، سـرّ نسـائي متوقد، سرّ الابنة الصغرى للجدة. تنهض الممسـدات، تسـمعهن، يمررن السـرّ قبل أن يبلغـن أكتـاف وأفخـاذ الأمهـات المتكاسـلات الفضوليات، والمستريحات أخيراً.

بلغتها الكلمات.

اسـم ابنتهـا. ربما تعلّق الأمـر بأخرى؟ لماذا ابنتها؟ ليسـت الوحيـدة التـي لم تفكر فـي أفضل زوج. تعـرف أن كل امرأة في الحمام، أم فتاة تبحث عن تزويجها، حسـبما التقاليد، لزوج مثالي: شـاب، متعلم، جـاد، رزين، مجتهـد، مقتصد، ورع بـدون أن يكون متزمتاً... هي نفسـها لم تختر زوجهـا. لا تلومه. لم تتحرك المرأة، ملتحفة بالمنشـفة البيضاء، ارتكنت برأسـها إلى الحائط الحجري، أغلقت عينيهـا كأن الجفون المغلقة تسـتطيع أن توقف الكلمات اللئيمة. النسـاء اللاتي يتبادلن الأحاديـث بصوت خفيض، ليس بعيداً عن العمود الأساسـي، الحلزوني، لا ينظـرن ناحيتها. أحياناً، تنسـل فتاة صغيرة من الحلقة وتتجـه ناحيتها. تنصت إلى وقع القدمين الصغيرتين، غير أنها لا تفتح عينيها. لا شـيء يمنعها من السـرّ المنتشـر في كلام عام، حاد، ويحتمي بقوة الشـر. لا تتحرك.

العينان مغلقتان. تسمع كلمات تلتصق بابنتها: مقهى، مشرب، صورة... هذه الكلمات التي يحرمها الحياء، هذه الكلمات التي تكفي لتلويث سمعة فتاة، أمها، أبيها، العائلة من جيل إلى جيل، وتجبرهم على النفي، حتى نار جهنم، طوال الأبدية. الجذع المشدود نحو الحائط الذي يرشح، الوجه القلق كما في يقظة النشوة أو الموت، تتلقى الكلمات الملعونة. لا تكف النسوة عن الكلام. وهي... ابنتها... حينما تأتي بنات الأعمام والأخوال والعمات لزيارتها، تتباحث الأمهات فيما بينها، متواطئات أو متنافسات. من تكون أولى بنات الأخوال والأعمام تتزوج؟ من سيكون لها أجمل عرس، رغم الحرب؟

تتبادل الفتيات على السطح الحكايات. لا يتكلمن عن أزواج المستقبل. ابنتها، الأجمل، الأكثر نشاطاً. سوف تكون طبيبة. وإلا ممرضة، إنها، أمها، من قالت «ممرضة»، بينما تكرر ابنتها «طبيبة وحتى جراحة»، وهذه الكلمة جراحة بثت الخوف في قلبها. يجب ألا أن تفتح امرأة جسداً... هو ذا ما فكرت فيه. لم تقل شيئاً لابنتها. ثم، لم ترجع ابنتها في الموعد إلى البيت، كما العادة. انتظرتها طوال الليل. يسافر الأب لأعماله، غادر الأخوة البلاد وابنتها، ابنتها الوحيدة... قالت للعائلة، ثالث يوم، إنها ذاهبة إلى الحمام. سمعت أن فتاة الصورة، ابنتها وأن في المقاهي والمشارب، تدور الصورة، يراها الجميع، يراها الرجال ويمررها كل واحد منهم إلى الآخر. رأى

كل رجال المدينة ابنتها هنا حيث تباع النساء... ابنتها للبيع؟ إنها ملعونة. هبطت اللعنة على بيتها. متأكدة. لا تبكي. لا يبكى المرء على فتاة تباع للرجال. على الطاولة، قرب فراشها، صور عائلتها، الأطفال، الصغار، مرتبة حسب السن، الأخوة والأخوات. عن ابنتها حفظت العديد من الصور، نراها وحيدة، تبتسم، وهي في السابعة من عمرها ثم في السابعة عشر عاماً. من تجاسر على سرقتها لكي يمررها بين أيادي الرجال؟ لم تلحظ شيئاً ذا أهمية. لم تختف الصور، إنها من مزقتها. مزقتها وحرقتها في الموقد. طلت وجه ابنتها بالسواد في الصورة التي تجمعها وهي تضحك أخوتها. ميتة بالنسبة لأمها، أخوتها، العائلة. ميتة. ليستدعيها الله إليها، في أقرب وقت، لا تريد أن تحيا.

تخرج الأخيرة.

تبادلت النسوة الأحاديث حتى انغلاق الباب الثقيل المزين بالمسامير. حينما فتحت عينيها، على العتبة، كان الوقت ليلاً. تمشي وحيدة كما مجنونة الحي، كأنها عمياء. تردد «ابنتي... ابنتي الصغيرة... ابنتي... لماذا ابنتي، الجميلة، الهادئة... ابنتي الوحيدة».

في الغرفة، على الطاولة، قرب الفراش، تضحك ابنتها مع أخوتها، ابنتها تبتسم. الباب يدق. إذا كانت هي؟ تفتح. تعرف

ابنة الخال. تجلس الواحدة قبالة الأخرى. تؤوب الأم حاملة القهوة، الفناجين البيضاء ذات الخطوط الذهبية. لا تتحدث، ولا ابنة الخال. ترتشفان رشفة سريعة، في صمت.

تنتصـب ابنة الخال واقفة، ترافقهـا الأم، تنتظر، واقفة قرب حائط الممر، كأن الفتاة سـتقودها. ابنة الخال، قبل أن ترحل، تمد للأم الساكنة في وقفتها بصورة.

جالسـة علـى حافة الفـراش، قـرب أطفالها، تنظـر الأم إلى الصورة. ابنتها تبتسم. كانت ترتدي زي جنود الجبال: بنطالاً رجولياً فضفاضاً، قميصاً عسكرياً، حذاء عسكرياً، خوذة، تتقلد بندقية.

لجأت ابنتها إلى الجبال.

* * *

(*) La Jeune fille aux pataugas , In: Sept filles , Ed. Thierry Magnier , 2003.

الحفل

حينما جلست عند ساق شجرة الجوز، لا تعرف أنها سوف تقطع.

ذات أحد بعد الظهيرة، قالت الأم إنها لا تملك وقتاً لكي تقوم بنزهة على طول النهر. من الناحية الأخرى للطريق الترابية الذي يحاذي البيت والمرج المحدودب، إذا مشينا عبر أشجار الجوز، نصل إلى مجرى نهر درون. من نافذة الغرف، في الطابق، نراه. ليس عريضاً مثل نهر درودوني بيد أن الأب يراه أكثر جمالاً. يصطاد أسماك التروتة، قانوناً ومخالفاً... وهو يعمل دركياً أيضاً...

ولدت مع النهر، في الأسفل. منذ اليوم الأول، حينما سحبتها عجوز القرية إلى العالم، نظرت إلى النهر بين ذراعي العجوز اللطيفة التي تأمر الشابات، بعد العمل المؤلم.

تنهض الأم متكئة على مرفقها لكي ترى الصغيرة التي تمسكها العجوز من خاصرتها حتى ترى مجرى النهر. صرحت العجوز أنه إذا عرض المولود إلى هسيس المياه الجارية، وإذا رسم على جبينه صليب صغير بالمياه الجارية المأخوذة من النبع، يفتح عينيه للعالم ومن الممكن أن ينظر إلى ما وراء البحيرة، ماراً بالضفة الأخرى.

عرضت العجوز الطفلة للنهر، كان الطقس حاراً ما بعد الظهيرة، حطت نحلة على الوشاح المصنوع من قماش الساتان الذي يحيط بالقلنسوة، لم تبعدها العجوز، على الرغم من احتجاجات الصغيرات اللاتي يتابعن حركاتها، منذ هيمنت على الغرفة. إنه فأل حسن.

كأنها ترى لمعان النهر بين أشجار الجوز، تطلق الطفلة صيحة. تنزعج الأم، تمد ذراعيها نحو الشرفة وابنتها.

– إنها ابنتك. لا تقلقي. لن أسرقها أو أتركها على الضفة. أريد فقط أن تنظر، حتى النوم، إلى حجر الطريق، إلى منحدرات المرج، إلى أشجار الجوز العتيقة والنهر. لئلا تنساها، حتى وإن رحلت ذات يوم، إلى البعيد، إلى الضفة الأخرى من النهر.

– عمَّ تتكلمين؟ قالت الأم التي تعترض على الكلام عن ابنتها. لا أفهم ما تقولينه.

– ابنتك سترحل. تعرفين.

– نعـم، ولكن بعد زمن، بعد زمن. لماذا تتكلمين عن اليوم الذي سترحل فيه. إنها لي، في بيتي، لسنوات... أريد ابنتي.

– إنها ابنتك. أعرف. نظرت إلى النهر، من هذه الشرفة، حيث ولدت في هذه الغرفة، كأي فرد معنا. أنا متأكدة أنها تستطيع أن تذكر اسمها...

– تتكلمين كأنها ولدت في النهر... لم أنجب في قارب، ولا على حافة النهر... كمتشردة بلا بيت. لم أنذر ابنتي للنهر...

– ولا للسيدة العذراء...

– صحيح. ردي لي ابنتي.

– ألا تريدين أن تطلقي عليها اسم أوندين؟

– لا. ذهب والدها لكي يستخرج شهادة ميلادها. ستسمى ماري.

قبل تناول القهوة بالحليب، كانت تركض نحو مجرى المياه، كل نهار، أيّاً كان الطقس. كانت الأم خائفة. سعت إلى حمايتها.

جـدة، من ناحية الأم، ماتت غريقة، ذات ليلة من ليالي اليأس، في أعلـى النهر. لم تقلهـا لابنتها. في البدايـة، اصطحبها الأب. ثم تركهـا تذهب بمفردها، يكرر أنها تعرف النهر أفضل منه... غير أن الأم لا تحتمل أن تنتظرها في المساء. إذا لم تعد. تنبأت العجوز، لم تزل تتذكر، الطفلة المعروضة في الشـرفة، التي سترحل ذات يوم إلى الضفة الأخرى. إلى أين؟ أ لن تراها بعد ذلك؟

حينما يشـتد الحر، وقت القيلولة، نسمع طنين النحلات، الخلايا غير بعيدة، خلف السـياج الذي يحمي البسـتان، الأب يستريح في ظـل الغرفة العليـا، الأم تقشـر الفاكهة في وزرتها، جالسـة في مقعدها المصنوع من خشـب البلوط، بعيداً عن الحظيرة الصغيرة، ودلـو عند قدميها. كان لماري عادة القراءة تحت شـجرة الجوز، عند حافة النهر.

– أيضـاً مع كتبـك، قالـت الأم، حينما تمضي مـاري قربها وتقبّلها على جبينها.

– تعالي معي، سترين...

تتناول نصف حبة كمثرى.

– وليـس لديـك شـيء آخر لعملـه؟ تقرئيـن دومـاً... أهذا للمدرسة؟

– لا.

جالسة تحت شجرة الجوز، تقرأ روايات بيار لوتي الإفريقية.

تنادي الأم الابن الأكبر. تصيح باسـمه عبر الحائط الذي يحيط الســاحة الصغيرة. تفتح الباب المطلي بالأخضر وتنظر إلى الشارع. نداء أخير، متذبذب، غاضب. تغلق الباب الذي يصرّ منذ زمن.

لا تســتطيع بناتهــا، مثلمــا كان الأمر قبل ســنوات، الذهاب بحثــاً عــن الأخوة الذيــن يلهون في ســاحة القرية تحت أشــجار الأوكالبتوس، ويتنافسون حول النوى أو الكرة التي ابتاعها أحدهم مــن أحد صبية فرنســا. تراقب الأم بناتها، اللائــي لا يخرجن أبداً. مــرة كل عام، تذهــب الفتيات إلى زيارة مــزار العائلة المقام على ربوة تطل على البحر ويعلقن، ســرّاً، شــريطاً من الساتان أو المخمل الأخضر في أغصان شــجرة الزيتون. يكتبــن أمنياتهن. ولكي يزرن ضريح الولــي، يرتدين الحجاب الأجمــل، الأزرق، الذي حاكته بنات العــم. وهو، الابن الأكبر، بعد الدراســة في الكتّاب القرآني، يركض نحو المدينة القديمة لأجل الخضروات، السميد، الفاكهة، الدجاجة الواجب أن يذبحها، لقد مات الأب. يشتري الدجاجة حية ويذبحها على الأرض، أســفل شجرة التين في الساحة الصغيرة داخل البيت. والأرض تشرب الدم.

فــي هذه الأيــام، كان متأخــراً. يلقي الدجاجــة ذات القوائم

المربوطة على الأرض التي بللها أخوته. كان الطقس حارّاً.

في المدرسة الفرنسية، وصل محمد لاهثاً. أطلق المدير صافرته. وقف التلاميذ في طوابير أمام الفصل. تنتظر المعلمة. لم يقل شيئاً بما أنه مرّ أمامها، القدمان عاريتان، اليدان متسـخـتان، لم يكن لديه الوقت للوقوف أمام النبع، بين البيت والمدرسة، كما فعل في الأيام السابقة.

يحب دروس الجغرافيا.

بمسطرة خشبية رفيعة، تلاحق المعلمة أصغر البحيرات والأنهار، الزرقاء، علـى الخريطة الكبيرة المعلقة على الحائـط. البحر، أيضاً، أزرق. يفصل بين قارتين. بلد المعلمة وبلد أمه. تقول:

– أنتم تقيمون هنا.

تشـير، بطرف المسـطرة، إلى نقطة ضئيلة على الخريطة، إلى مدينة صغيرة تقع على ضفة البحر.

– وأنا أقيم هنا.

تتوقف المسـطرة عند نقطة حمراء، أكبر عنـد الضفة الأخرى، قالت:

– إنها باريس، عاصمة فرنسا.

ترجع المسطرة إلى بلاد الأطفال:

– وهنا، هي ذي الجزائر، عاصمة الجزائر. ثم رسمت المسطرة أنهاراً ومنابعها. سمع:

– يستمد نهر الغارون منبعه من وادي آران، في إسبانيا.

تردد المعلمة، وتجعل التلاميذ يرددون، يقولون، كأنهم يغنون، كما في الكتّاب القرآني، غير أنهم لا يهزون رؤوسهم على لويحة:

– يستمد نهر الغارون منبعه من وادي آران، في إسبانيا.

تمسح المسطرة، بدءاً من المنبع، مسيرة النهر حتى مصبه. قرأ التلاميذ على السبورة الكلمة التي مازالت المعلمة تتهجاها: مصب النهر. قرأ الجميع:

– مصب النهر.

قالت المعلمة: لا. هنا حرف U لا حرف I. لنبدأ من الأول: مصب النهر ESTUAIRE.

تتهجى الكلمة، وتركز على حرف U. يتابع التلاميذ حركة الفم، الشفاه ممطوطة كأنها تصفر. فيما بينهم، يرددونها. يضحكون.

قالت المعلمة:

– المصب، هو حيث يلاقي النهر البحر، الماء العذب يمتزج بالماء المالح. يخلق دوامات.

تشير ثانية إلى الخط الأزرق لنهر الغارون والأطفال يرددون اسم الروافد والأنهار التي تعلّمها سريعاً بالمسطرة. يسمع:

– نهر درودوني، إيزل، درون...

يردد الأسماء، بيد أنه لا يستطيع أن يجدها على الخريطة حينما تسأله المعلمة. حفظ الاسم الأخير: الدرون، غير أن المسطرة التي يمسكها في يده تتوه بين الأصفر، الأخضر، البني، بدون التوقف عند الدرون.

يجب ألا ينسى الخبز. تعد أمه وأخواته الخبز في البيت، وهو الذي يتركه في الفرن. ويحضره بعد المدرسة.

يفكر أنه يملك من الوقت الكافي للركض حتى الضفة عبر الدروج التي تفضي إلى الميناء. ينهض قبل أمه، قبل رائحة القهوة، الأحد، ويسبح بعيداً، أبعد عن صبية فرنسا الذين يسبونه إذا اقترب من الفتيات، أخواتهم. ذات يوم، لمس الديك الأزرق لسفينة نقل، كان متأكداً أنها سفينة نقل.

في المساء يقرأ كلمة الجغرافيا النهرية. تسمعه أخواته. أحياناً يضحكن من جهود أخيهن. لا يذهبن إلى المدرسة. يتعلمن الحياكة،

في المشغل، لدى الراهبات، بالنسبة لجهاز العروس. يرسم الخريطة، ضفتـــي البحر. لا تريد الأخوات تصديق أنهن يســكنّ هذه البقعة الواضحة التي يضع سبابته عليها. يتشاجرن على الألوان.

يردد الآيات القرآنية، أسماء الأنهار والروافد، يحفظها عن ظهر قلب، وأخواته أيضاً.

يجلس على حافة الحاجز، قرب الفنار. لا يعرف أنه سوف يرتبط ذات يوم بامرأة من ضفة البحر الأخرى.

غـــادرت النهر الــذي نراه من شــرفات الغرف إلـــى نهر مدينة آكيتان. لم تر بعد المحيط، ومصب النهر طويل وبطيء أمام عينيها، قبل المحيط الأطلسي.

مع صاحباتها، تمشـــي على امتداد النهر، يثرثرن، حتى توقفن وملـــن نحو الميـــاه التي تلاقـــي الحاجز. فقدت إحداهـــن قبعتها. صرخن، وركضن محاولات أن يمسكن بالقبعة. إنه الصيف.

كان الجميع يتحدث عن الحرب. غير أنها لا تمثل شيئاً لهن.

هذا المساء، ستذهب الفتيات إلى الحفل.

فـــي الغرفة التي يتقاســـمنها، ارتدت الفتيات ملابســـهن. تبادلن الأثواب، الصدار، الجوبات. لم يكنّ راضيات أبداً عن أنفسهن عندما تنظر

كل واحدة منهن إلى المرآة المثبتة أعلى الصوان الضخم، الرئيسي.

للمرة الأولى، يرى النهر، هذا الذي يستمد منبعه من وادي آران في إسبانيا، ويسير لمسافة 647 كيلومتراً قبل أن يدرك مصب الجيروند. يسير وصديقه في المدينة، مفتوناً بالنهر والسفن، بالفرنسيات اللواتي ينظر إليهن بدون أن يخفض عينيه، جريئات وجميلات جداً في أثواب الصيف. يفكر في المعلمة، الفرنسية ابنة باريس.

لم يكن ذهب إلى حفل من قبل.

صاحبه تزوّج. دعاه إلى مرقص المدينة الشهير. مرة أُخرى، نظر إلى نفسه في المرآة المعلقة أعلى الحوض، في غرفة الفندق. البزة التي ابتاعها في العشية تعجبه. يعاين البياض الرائع للقميص، الياقة، المعصمين، سواري القميص. يمرر يده على شعره، حانقاً. الخصلات السوداء تتجعد كثيراً. سوف يطلب من الحلاق أن يضع كريماً كما يفعل أصحابه في الجزائر. لا يحب رائحته. يحاول من جديد أن يرتب شعره. كان متعجلاً. صاحبه يناديه من الشارع الصغير المبلط الذي يفضي إلى النهر.

كانت الفتيات جالسات على يسار الأوركسترا. تتبادل الثلاث صديقات الأحاديث والضحكات، وهن يشربن عصير البرتقال، كما على ضفة النهر.

الفالس الجميل بدأ.

إنه الصيف. هذا المساء، كان الطقس لطيفاً. لا يتحدث أحد عن الحرب. ينحني الرجل ناحيتها. كانت ترتدي ثوباً مرسوماً عليه زهور السوسن العريضة، التي تحبها. يقودها الغريب نحو حلبة الرقص. كان لديه لون الخبز. لا ترى وجهه.

حينما بدأ يتكلم، تسمعه، مندهشة. لا ينطق حرف الراء مثل صديقه في الناحية الأخرى من الحلبة، إلا أنها تسمع لغة تشبه لغة الكتب، لغة لا يتحدثها زملاء الطفولة. يقول إن في بيت أمه، هناك حديقة، صغيرة حتى إنها لا تعتبر حديقة، بل شبه حديقة، مزروعة بزهور السوسن الجميلة، اللامعة مثل زهور ثوبها.

يتحدث عن التلال الجافة، حيث لا توجد مياه، خيول عربية يصطاد من عليها النبلاء الصقور، جمال في ساحة المدرسة الصغيرة بالجنوب، وبعد البوابة، الصحراء.

حينما رجعت إلى طاولة صاحباتها وجلس إلى جانبها، ظلت تتطلع إليه.

شعره أسود ومجعد. عيناه زرقاوان. لازورديان. يفتنها.

***

.Leila Sebbar, Le bal, in: Mes Algeries en France, Bleu autour, Paris, 2004 (*)

لون الرغبة

هاتــان المرأتان اللتان تمشــيان في شــوارع المدينــة، أيــن تذهبــان؟ فــي بطء، يتســاندن، الواحدة إلى الأخرى، ككفيفتين في شــارع غريب، لا نعــرف إن كانتا شــابتين أو عجوزين، تتقدمان، حذرتين، هل ســيكون الطوتر حامل ألغام؟ أطفال الوطــن المشــوهون مــن جــراء الحــرب الضارية. قادمتان من الأرض الجافة، حيث تقرقع الأســلحة في أيدي الصبيــة، الشــباب، المحاربين المجانين الذين يضحكون لما يســقط العــدو أرضاً، صديق الأمس نفســه، والأم لم تعد أمّــاً. يعرضون الصور

الفوتوغرافية التي ستجعلهم مشهورين في العالم بأسره، يعرضون، هؤلاء القتلة الفرحين بقوة الأسلحة، الحياة، الموت، ماذا يعني هذا كله؟

هاتان المرأتـــان، اثنتان، ابنتا خال أو عـــم، زوجتا رجل واحد؟ مشتا حتى هنا من القرية القاحلة التي تموت. مشتا نحو ما لا يرى، وما لا تراه أعينهما.

يمضي شـــباب، غرباء، تنظـــران إليهم بالكاد. كانـــوا يتكلمون ويضحكون. لا توجد أسلحة في أياديهم. على طرف الطوار، تسمعان ضجة ونقاشـــات صمـــاء، صوت ممتزج بـــالأذان، غيـــر أن المرأتين تعرفـــان أنهما لن تتوجها إلى الشـــارع القذر والـــذي يصدح بكافة اللغـــات، إلى المئذنة المربعة المتجهة إلى الســـماء، وأن الأذان غير الأذان الذي تنتظرانه، في صبر بالســـاحة الخالية بمنزلهما بالقرية التي هجرها الرجال للذهاب بعيداً، إلى بلاد الذهب.

يتحرك الشابان. يثيران القلق، ينظران يمنة ويسرة، هل أصابهما أحد ما بالخوف؟ هل هاجمهما محارب شـــرس؟ من جيب القميص، يخرج أحدهما شيئاً ما لم تتبيناه. كانت أعينهما منهوكة من الرياح القاسية والحزن. لم يصح ديك الحي الأخير في نهاره، بالقرية. قال الصبي: «معي قنبلة، انظـــرا». على الحائط ذي المربعات الحجرية المطلية بالأســـمنت اللامتساوي كتب بالأحمر: «الشرطة السرية !».

يسمع صوت صفارة. السيارة تمرق بدون توقف. الصبية المختفون خلف المرأتين، ذات الحجاب الأبيض وذات الحجاب الأسود، بعد أن عملت ثنايا الرداءين ستاراً بين الشارع والحائط، يكثرون ويدفعون المرأتين «لا يتجهون إلينا». «إلى أين نذهب؟». «إلى الكنيسة». «مازالت الشرطة هناك». «هيا بنا... لا نستطيع فعل هذا. كنيسة، إنها مقدسة، أليس كذلك؟ النساء، الأطفال بالداخل... ماذا سنفعل؟». «هيا بنا. على الحائط، سنكتب كلمات رهيبة». «لن يقرأها أحد. فيمَ تفيد؟». «لا أعرف. على الحائط ستبقى لفترة طويلة، يستطيع الناس أن يقرأوا الكلمات». «إذا دخل رجال الشرطة إلى الكنيسة، كلماتك...». «أعرف، سوف نرى، هيا بنا». ينعطفون من طرف الشارع ركضاً على أقدامهم.

لم تتوقف المرأتان. لم تريا الكلمات الحمراء. تمشيان جنباً إلى جنب، كأنهما ملتحمتان، في رداءيهما الأبيض والأسود. الجسد أماماً، منجذبتين بصوت الرجال الذين يحرسون الأماكن المقدسة. هل ستقرأ الكلمات بمعجزة أو من لدن أميين؟... هذه الكلمات المكتوبة على الحائط الذي تحاذيانه.

أطفال

الزيتون المر

لضحكاتنا

لون

الرغبة

المدمر

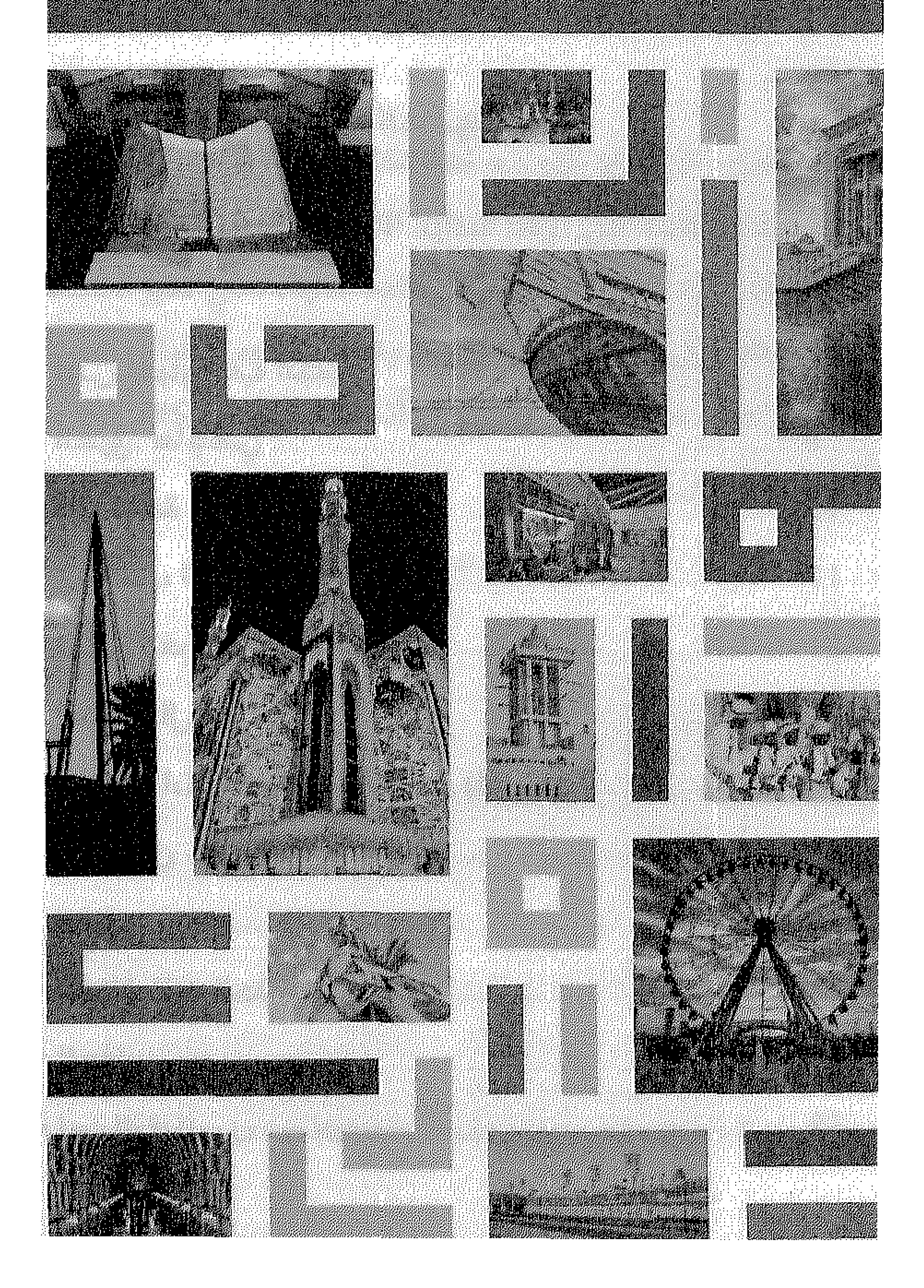
تسمعان: «لا إله إلا الله...». لغة الكتاب، اللغة الإلهية الجميلة التي لا تفهمانها، في غرفة البناية التي سيهدمونها، تتكلمان لغة أمهما، الأم ماتت منذ أمد طويل، لغة الحياة التي تثير المعاناة والبكاء والرحيل إلى البعيد، نحو مدينة لا يقوم أتقياء بالصلاة فيها، في غرف معتمة، متسخة. غير أنهما تسمعان كلام الكتاب أخيراً، وهكذا هي الجنة...

***

(*) Leila Sebbar, Le livre blanc de toutes les couleurs, Albin Michel. Paris. 1998.

المحتويات

الشارقة عاصمة الثقافة الإسلامية 2014



ترجمة: محمد الجرطي

حوارات القرن





ليلى صبار

ترجمة: أحمد عثمان

أختي الغريبة

وقصص أخرى





الشارقة عاصمة الثقافة

LAMIC CULTURE CAPITAL

20
14